

اقرأ

الدكتور إبراهيم محمد العدوي

ابن بطوطة

في العالم الإسلامي

اهداءات ۲۰۰۲

الاستاذ/ محمد حسنين كرام

الاسكندرية

ابن بطوطة
في العالم الإسلامي

محمد العدوي

ابن بطوطة في العالم الإسلامي

اقرأ
١٤٤
دار المعارف بمصر

اقراً ١٤٤ - ديسمبر سنة ١٩٥٤



جميع الحقوق محفوظة
لدار المعارف بـبصر

جواب الآفاق

في مدينة فاس ، ببلاد المغرب الأقصى ، ألقى شيخ
 في الخمسين من عمره ، عصا التسيار عام ٧٥٤ هـ (١٣٥٣م)
 عائداً من بلاد الشرق الأقصى . وأخذ يقص من أخبار هذه
 البلاد النائية ما أثار دهشة السامعين من معاصريه وضججهم
 حول تصديقها أو تكذيبها . فأخذ الناس يتجادلون فيما بينهم
 عما رواه الشيخ العجوز من مشاهدات ، لا فرق في ذلك بين
 متعلم وجاهل فذكر ابن خلدون وهو من معاصريه : « ورد
 على المغرب لعهد السلطان أبي عنان . . . رجل يعرف بابن
 بطوطة ، كان قد رحل منذ عشرين سنة قبلها إلى المشرق ،
 وتقلب في بلاد العراق واليمن والهند ، ودخل دهلي حاضرة ملك
 الهند . . . وكان يحدث عن شأن رحلته ، وما رأى من
 العجائب بممالك الأرض . . . فتناجى الناس في الدولة بتكذيبه .
 ولقيت أنا يومئذ في بعض الأيام وزير السلطان . . . ففاوضته
 في هذا الشأن ، وأريته إنكار أخبار ذلك الرجل لما استفاض
 الناس في تكذيبه .

« فقال الوزير . . . إياك أن تستنكر مثل هذا من أحوال الدول ، بما أنك لم تره ، فتكون كابن الوزير الناشئ في السجن . وذلك أن وزيراً اعتقله سلطانه ، فمكث في السجن سنين ربي فيها ابنه في ذلك الحبس . فلما أدرك وعقل ، سأل عن اللحمان التي كان يتغذى بها ، فإذا قال له أبوه هذا لحم الغنم ، يقول وما الغنم ؟ فيصفها له أبوه بشياتها ونعوتها ، فيقول : يا أبت تراها مثل الفأر ؟ فينكر عليه ويقول ، أين الغنم من الفأر ؟ ! وكذا في لحم البقر والإبل ، إذ لم يعاين في محبسه إلا الفأر ، فيحبسها كلها أبناء جنس للفأر . »

لكن سلطان فاس نفسه كان ممن أعجب بأحاديث ذلك الشيخ ، وأمر أحد كتابه أن يدون ما يمليه ذلك الرحالة المحنك : « وما شاهده في رحلته من الأمصار ، وما علق بحفظه من نوارد الأخبار ، وذكر من لقيه من ملوك الأقطار وعلمائها الأخيار . »

ليقع الاستمتاع بتلك الطرف ويعظم الانتفاع بديرها . »

ولم يكن هذا الشيخ الذي عرف بابن بطوطة نكرة رفعتة المقادير إلى مصاف الرحالة والرواد الكبار ، وإنما هو سليل محتد أصيل ، وعنصر كريم ، تحلى بصفات هيأت له السمو والرفعة ، وترك أثراً خالداً لا يبلى ، إذ ولد هذا الرحالة من أبوين كريمين في مدينة طنجة سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٤ م) ،

وشب بين أحضان أسرة عريقة في الاشتغال بالعلوم الشرعية الإسلامية ، وتولى مناصب القضاء بين الناس . فترى محمد ابن بطوطة وترعرع في مهله ديني ، وسار على نهج أسرته ، حيث درس العلوم الدينية وتفقه فيها ، كما تعلم الأدب وفنون الشعر . وقد صبغته هذه التربية ، وجعلت منه رجلاً تقياً ورعاً محباً للعلماء والأولياء ، وخير مثال لما تتمتع به أبناء الأسر الدينية العليا في المجتمع الإسلامي من طموح ومقدرة على تحمل المشاق والارتحال في طلب العلم والعرفان .

تفتحت مواهب محمد بن بطوطة حين شب عن طوق الفتيان ، وغدا شاباً رشيداً في الثانية والعشرين من عمره . إذ أثر مغادرة بلاده ، والذهاب إلى بيت الله الحرام ، لأداء الفريضة ومشاهدة قبر الرسول الكريم . وجاء هذا العزم على الحج حدثاً هاماً في حياة ابن بطوطة ، دفعه إلى أن ينفذ عنه ثياب الدعة والاستقرار ، ويرتدى ثوب الارتحال والتجوال ، مخلصاً اسمه في ميدان الرحلات التي قام بها قبله كثير من المسلمين ، إذ دأب نفر من المسلمين منذ القرن الثالث الهجري على ارتياد بلاد الإمبراطورية الإسلامية المترامية الأطراف ، من حدود الهند شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً ، ومن آسية الوسطى وجبال القوقاز شمالاً إلى صحارى إفريقيا جنوباً .

وبدأت رحلات أولئك المسلمين الأول متخذة صبغة رسمية ، قام بها مبعوثون وسفراء من قبل السلطات المركزية الإسلامية ببغداد ، لوصف الطرق والممالك التي تربط العاصمة بالبلاد التابعة لها ، وللرأسة الأحوال التي تعين أولى الأمر على إدارة هذه الإمبراطورية ، وتطبيق أحكام الشريعة فيها . على أن هذه الرحلات لم تلبث أن احتضنت طائفة الحجاج المسلمين إلى بلاد الحجاز بصفة خاصة .

فكان الحج من أغنى ينباع التي زودت المسلمين بالمعلومات ، إذ صاحب عودة الحجاج إلى بلادهم سرد كثير من القصص والأخبار التي سمعوها في طريقهم ، ووصف المشاهدات التي رأوها في سبيلهم . ودون بعض الحجاج الواسعي الثقافة مشاهداتهم بعد عودتهم ، ليستفيع بتجارهم سائر المسلمين ، ولتساعدهم على أداء مناسكهم . ومن ثم زخرت كتبهم بأحوال سكان البلاد الإسلامية ، وطبيعة مزاجهم ، وأسس اقتصادياتهم ، وينابيع ثروتهم ورخائهم .

وقف ابن بطوطة على أخبار أولئك الرحالة السابقين ، فأثارت عنده ملكة مشاهدة أقاصى البلاد ، مع البدء بحج بيت الله الحرام . على أنه تفوق عليهم وتمتع بمركز الصدارة بينهم بفضل ثقافته الدينية الواسعة . إذ هيا له تفقهه في شئون

الدين الإفادة مما كان بالعالم الإسلامى من مزايا تشجع الرحلات
وتساعد على القيام بها . فكانت طبيعة العالم الإسلامى على
عهده تتسم بالبساطة فى العيش ، وشدة التقوى والصلاح ،
وما يصاحبهما من مظاهر تكفل للمسافر الطمأنينة فى ظلها
والتمتع بمميزاتها . فكان المسلمون فى أنحاء الإمبراطورية
الإسلامية يرحبون بإخوانهم الداهيين إلى الأراضى المقدسة ،
ويقفون الأوقاف للإلتحاق على الغرباء من المسافرين المسلمين .
ولذا كانت الطرق بين البلاد الإسلامية أهلة بالركبان ،
إلى جانب قوافل التجار التى انتشرت بين هذه الأقطار حاملة
منتجاتها وخيراتها ، ووصلت بها إلى الهند والصين . فسافر
ابن بطوطة إلى حيثما شاء مندجاً فى ركب تجارى أو مع قافلة
حجاج ، متجنباً بذلك أن يضل السبيل . على حين فتح له
تدينه وعلمه الغزير قلوب الناس أينما نزل ، ودور ضيافة خكام
الأمصار والمدن . فنعم ابن بطوطة بالتمتع بثمار الأخوة التى
سادت بلاد العالم الإسلامى ، برغم ما فقدته على عهده من
الوحدة السياسية ، حيث دلت روابط الدين واللغة والثقافة على
أنها من أقوى العوامل القادرة على إبقاء التضامن بين البلاد
الإسلامية ، أما القوميات الإقليمية فقد تضاءلت أمامها .
وهكذا تابع ابن بطوطة رحلاته ، حاملاً بين جوانحه

شخصية خفيفة الظل حلوة الشمائل. إذا ما حل بقوم ؛
وقوية البأس شديدة السطوة إذا ما واجه مصاعب في الطريق .
ثم عاد إلى وطنه بأرض المغرب الأقصى حاملا صورة فريدة
عن الحالة الاجتماعية في بلاد العالم الإسلامي على عصره .
إذ خلت مشاهداته من الإطناب الخاف في ذكر جغرافية البلاد
التي اجتازها ، ووصف جبالها وأنهارها ، وإنما جاءت صورة
اجتماعية تنبض بالحياة عن أحوال المسلمين ، ولا سيما الأشخاص
الذين التقى بهم أو تعامل معهم . ونال بذلك ابن بطوطة قصب
السبق على سائر الرحالة المسلمين ، وضرب أحسن مثل عملي
على ما ساد روح المسلمين في عصره من حب للمغامرة ،
واعتراز . باتساع إمبراطوريتهم ؛ على نحو ما افتخر به شاعر
إسلامي من الرواد :

ومن كان من الأحرا	ر يسلو سلوة الحر
ولا سيما في الغربية	أودى أكثر العمر
وشاهدت أعاجيبا	وألواناً من الدهر
فطابت بالنوى نفسى	على الإمساك والفطر
على أنى من القوم الـ	بها ليل بنى الغر
فنحن الناس كل النا	س في البر وفي البحر

١١

أخذنا جزية الخلق من الصين إلى مصر
إلى طنجة ، بل في ك ل أرض نخيلنا تسرى
إذا ضاق بنا قطر نزل عنه إلى قطر

بداية المطاف

خرج ابن بطوطة من طنجة يوم الخميس الثاني من شهر رجب سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٦ م) قاصداً حج بيت الله الحرام ، وزيارة قبر الرسول الكريم . وكان والداه إذ ذاك على قيد الحياة ، فبكى لفراقهما ، لأنه كان رجلاً رقيق الشعور مرهف الإحساس . وسافر منفرداً دون أن يصحبه أحد في الطريق ، أو يجده ركباً يندمج فيه . ولكن حين بلغ مدينة تلمسان وجد بها رسولا يدعى أبا عبد الله الزبيدي ، متجهاً إلى مدينة تونس . فرافقه في الطريق ، بعد أن اشترى من هذه المدينة بعض المؤن والحاجات .

ولما بلغ الركب مدينة بجاية ، أصيب ابن بطوطة بالحمى . فأشار عليه أبو عبد الله الزبيدي أن يقيم بهذه المدينة حتى يشفى مما ألم به . لكن ابن بطوطة أبى ، وصمم على مواصلة الرحلة ، مفضلاً أن يلتق ربه وهو في طريقه لأداء فريضة الحج . فنصحته أبو عبد الله الزبيدي عندئذ بأن يبيع

دابته ، وما معه من متاع ، على أن يُعيّره دابة من عنده وما قد يحتاج إليه من أشياء ، ليصبح سيره خفيفاً ، غير قلق على متاع أو زاد . وقد اشتدت وطأة الحمى على ابن بطوطة في أثناء مواصلة الركب السير ، فكان يشد نفسه بعمامته فوق السرج ، حتى لا يسقط من الضعف ، وظل على ذلك حتى وصل الركب إلى أطراف مدينة تونس ، حيث شفى من المرض .

وشاهد ابن بطوطة الناس خارج مدينة تونس لاستقبال أبي عبد الله الزبيدي ومن معه . ولما أهل الركب عليهم ، أقبلوا بالتحية على الزبيدي ، وكذلك على سائر أفراد الركب ، دون أن يحجي أحداً منهم ابن بطوطة ، إذ كان غريباً عن أهل المدينة ، ولا يعرفه أحد بها . فهاج ذلك من نفسه الشجن ، وأحس لأول مرة بآلام الفرقه ، وأجهش بالبكاء . على أن أحد أفراد الركب شعر بحال ابن بطوطة ، وأقبل عليه بالسلام ، وأخذ يؤانسه بالحديث حتى دخل الناس مدينة تونس .

أقام ابن بطوطة بهذه المدينة حتى تم إعداد ركب الحجاج القاصدين إلى الحجاز . ولما انتظم عقد الركب ، نصّب الحجاج ابن بطوطة قاضياً عليهم لعلمه وورعه ، وتفقهه في الدين . فزالت عنه الوحشة ، وأحس للمرة الأولى أيضاً بأخوة الروح الإسلامية . وقد تزوج في طرابلس حين نزل الركب بها ،

ولكن لم يلبث أن طلق زوجته لشجار وقع بينه وبين صهره ،
وتزوج من امرأة أخرى ، وأعد للركب بمناسبة الزواج وليمة ،
قضوا فيها يوماً كاملاً في مرح وسرور ، ثم ودع زوجته ،
وسار مع الركب متابعاً رحلته إلى الحجاز .

من وحى النيل :

وفى أول جمادى الأولى وصل الركب إلى مدينة الإسكندرية ،
التي أعجب بها ابن بطوطة أيما إعجاب . ولكن كان نزوله
أرض مصر فاتحة عهد جديد في تاريخ حياته ، أفاض عليه
النيل فيها من نفحاته ما رفعه إلى مصاف الخالدين . إذ قابل
ابن بطوطة في الإسكندرية عالماً يدعى برهان الدين ، نزل
في ضيافته ثلاثة أيام . وكان لهذا العالم أثر كبير في خلق
ابن بطوطة خلقاً آخر ، إذ استشف من أحاديثه معه أنه
أمام شخص يحب للتجوال ، وأن روحه تحب المغامرة وارتياح
الآفاق . فقال لابن بطرطة : أراك تحب السياحة والجولان
في البلاد ، فأجابه بالإيجاب . وهنا قال له : لا بد لك إن
شاء الله من زيارة الهند ، ومقابلة أخى فريد الدين بها ، وكذلك
النزول بأرض الصين ، والالتقاء بأخى برهان الدين هناك ،
فإذا بلغت هذه البلاد ، فأقرئ لإخوتي بها السلام . ولم يكن

ابن بطوطة قد حدثته نفسه بعد بالتوغل في مثل هذه البلاد القاصية ، فجاء حديث العالم المصرى حافراً آثار عنده غريزه حب الأسفار ، وجعل نفسه تتوق لمشاهدة هذه البلاد ، التى يقيم بها إخوة ذلك الفقيه العظيم .

* * *

وكانت فترة إقامة ابن بطوطة بمصر مرحلة مباركة في حياته ، نمت فيها عنده ملكة الارتحال وزيارة أقاليم البلاد ، إذ دفعه حرصه على مقابلة العلماء والأولياء إلى زيارة كل من ترمى إليه شيء من أخبارهم . فسمع وهو بالإسكندرية عن الشيخ الصالح أبى عبد الله المرشدى ، وأنه من كبار الأولياء ، ومنقطع للعبادة بمنية بنى مرشد قبالة فوة ، في زاوية منفردة لا يخدمه فيها أحد . فرحل لزيارة هذا الولي وقابله في زاويته ، حيث لقي منه الكرم والعطف . وقضى ابن بطوطة ليلة عند أبى عبد الله المرشدى ، ورأى حليماً عجيباً في هذه الليلة ، قصه على الولي في صباح اليوم التالى . ففسر له أبو عبد الله المرشدى الرؤيا ، قائلاً له : سوف تحج وتزور قبر النبي ، ثم تجول في بلاد اليمن والعراق وبلاد الترك وبلاد الهند وتبقى بها مدة طويلة . ففارق ابن بطوطة منية بنى مرشد وهو شديد الإيمان بطواف البلاد التى سمعها من قبل من العالم برهان الدين ،

ثم من نبوءات الولي أبي عبد الله المرشدى .

* * *

وانتهز ابن بطوطة وجوده فى أرض مصر وعول على زيارة
أمهات مدنها ، ومشاهدة أحوالها . فذهب إلى دمياط وأعجب
بنظامها ، إذ لم يكن يسمح لأحد بالخروج منها إلا بتصريح
من والى ، فمن كان ذا منزلة رفيعة فى المدينة منح جوازاً يبيح
له الخروج ، على حين توضع علامة على ذراع عامة الناس
بمثابة تصريح لهم بمغادرة المدينة إذا شاءوا ، وشاهد بهذه المدينة
كذلك الطائفة المعروفة بالقرنديرية التى يخلق مريدوها لحامهم
وحواجيجهم . وذكر ابن بطوطة أن السبب فى ذلك يرجع إلى
محاكاة رئيسهم الشيخ جمال الدين الساوى مؤسس هذه الطائفة ؛
إذ يروى أنه كان جميل الصورة حسن الوجه ، فعلمت به امرأة
أخذت تراسله وتعارضه فى الطريق ، وهو يمتنع عنها . فلما
أعياها أمره دست له عجزوا تصدت له بالقرب من أحد
ال منازل الواقعة على طريق المسجد ، ويبيدها كتاب . فلما
مرّ بها ، قالت له : يا سيدى ؛ أتحسن القراءة ؟ قال نعم ،
قالت له هذا الكتاب بعثه إلى ولدى ، وأحب أن تقرأه على .
جافأها إلى طلبها ، ولما فتح الكتاب قالت له : يا سيدى ،

إن لولدى زوجة ، وهى فى فناء الدار ، فلو تفضلت بقراءته بين
 بابى الدار بحيث تسمعها . فأجابها لذلك ، ولكن لما توسط
 بين البابين غلقت العجوز الباب ، وخرجت المرأة وجوارها
 فتعلقن به وأدخلته إلى داخل الدار ، وراودته المرأة عن نفسها .
 فلما رأى أن لا خلاص له ، انتحى ركناً من المنزل وأخرج
 موسى كانت معه وحلق لحيته وحاجبه ، ثم خرج عليها .
 فاستقبحت هيئته واستنكرت فعله وأمرت بإخراجه . وبذلك
 غضبه الله ، وبقي على هيئته فيما بعد ، وصار كل من يسلك
 طريقته يحلق رأسه ولحيته وحاجبيه ، على نحو ما فعل .

وركب ابن بطوطة النيل متجهاً إلى القاهرة عاصمة
 البلاد . فذكر أن القرى والمدن منتظمة على النيل . متصل
 بعضها ببعض ، ولا يحتاج راكب النيل إلى أخذ طعام معه ،
 لأنه مهما أراد النزول إلى الشاطئ توضأ وصلى واشترى ما يحتاج
 إليه من طعام وغير ذلك لاتصال الأسواق بعضها ببعض .
 ولما وصل إلى العاصمة رأى كثرة سكانها وأن المدينة تموج بهم
 موج البحر ، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها ، كما لاحظ
 أن شبابها مجد كادح ، ولكل عمل خاص به . فذكر أن بها
 من السقائين على الجمال اثني عشر ألف سقاء ، وأن بها
 ثلاثين ألف مكار ، وأن بنيلها من المراكب ستا وثلاثين ألفاً

تلسطان والرعية . على أن هذه المبالغة تدل على الأثر الطيب
الذى تركته مصر فى نفس ابن بطوطة ، وغادرها إلى الشام
أخيراً ليخرج مع قافلة حجاج دمشق إلى الحجاز .

ابن بطوطة في الشام

رحل ابن بطوطة من مصر إلى الشام عن طريق بلبس والصالحية ، وكان طريقاً مزوداً بما يكفل الراحة للمسافرين ، إذ به محطات لرجال الأمن وفنادق للنازلين . ووصف ابن بطوطة هذا الطريق قائلاً : « ثم وصلت إلى الصالحية ومنها دخلنا ”الرمال“ ، ونزلنا منازلها ، . . . وبكل منها فندق ، وهم يسمونه الخان ، ينزله المسافرون بدوابهم ، وبخارج كل خان ساقية للسبيل ، وحنوت يشتري منه المسافر ما يحتاج إليه لنفسه ودابته ، ومن منازلها ”قطيا“ المشهورة . . . وبها تؤخذ الزكاة من التجار وتفتش أمتعتهم ويبحث عما لديهم أشد البحث ، وفيها الدواوين والعمال والكتاب ، . . . ولا يجوز عليها أحد من الشام إلا ببراءة (أى تصريح) من مصر ، ولا إلى مصر إلا ببراءة من الشام ، احتياطاً على أموال الناس وتوقياً من الجواسيس . . . وطريقها في ضمان العرب ، وقد وكلوا بحفظه ، فإذا كان الليل مسحوا على الرمل حتى لا يبقى

به أثر ، ثم يأتي الأمير صباحاً فينظر إلى الرمل ، فإن وجد به أثراً طلب العرب بإحضار مؤثره ، فيذهبون في طلبه فلا يفوتهم ، فيأتون به الأمير فيعاقبه . بما شاء .

وتنقل ابن بطوطة وهو في الطريق ، بين مدن فلسطين والشام ، بعد أن أكرمه سلطات الحدود وأباح له ولين معه اجتياز البلاد إلى الشام . فزار أولاً بيت المقدس وشاهد مسجدها العظيم وقبته الرائعة التي توجد تحتها الصخرة التي عرج منها الرسول إلى السماء . وأبدى ابن بطوطة إعجابه بروح الإنشاء والمودة التي كانت سائدة بين المسلمين والمسيحيين بالشام . إذ قال : إن هناك ديراً خارج مدينة اللاذقية من أعظم أديرة الشام ومصر ، يسكنه الرهبان ويقصده النصارى من الآفاق ، وكل من نزل به من المسلمين يضيفه النصارى ويكرمونه ، وطعامهم الخبز والحب والزيتون .

* * *

على أن دمشق أخذت بلب ابن بطوطة حتى قال إنها جنة المشرق وعروس المدن ، تحلق بها البساتين لإحداق الهالة بالقمر . وكان أول ما حرص على مشاهدته بها هو جامعها المعروف بجامع بني أمية . فذكر أنه أعظم مساجد الدنيا بهاء وأتقنها صناعة ، له قبة هائلة ، ترى من أية جهة في المدينة ،

وبه صحن فسيح يجتمع به أهل المدينة من قارئ ومحدث ، وفي وسطه شباك حديد في وسطه أنبوبة نحاس يخرج منها الماء ، فيرتفع في الهواء ثم يثني كأنه قضيب بلجين ، يستحسن الناس وضع أفواههم فيه للشراب . وفي الركن الشرق منه خزانة كبيرة فيها المصحف الكريم الذي بعثه أمير المؤمنين عثمان بن عفان إلى الشام . وتفتح هذه الخزانة كل يوم جمعة بعد الصلاة ، فيزدحم الناس على ثمن المصحف ، كما يستحلف الناس دائنهم هناك على الوفاء بأمانتهم .

وأشار ابن بطوطة إلى تركيز الحياة والنشاط بمدينة دمشق حول هذا المسجد . فذكر أن له أربعة أبواب كل منها يطل على مرفق هام من مرافق المدينة . فيجد الخارج من الباب الشرق المعروف بباب الساعات غرفة ، لها طاق كبير مقسم إلى طيقتان صغيرة لها أبواب على عدد ساعات النهار . والأبواب ملونة من الداخل باللون الأخضر ، وظاهرها باللون الأصفر ، فإذا انقضت ساعة من النهار انقلب الجانب الداخل الأخضر إلى الخارج ، وحل اللون الأصفر محله بالداخل : وكان بداخل الغرفة رجل يتولى قلب هذه الأبواب بيده عند مضي الساعات ، وأمام هذا الباب شوارع مستديرة فيها دكاكين البزازين ، وكذلك حوانيت صناعات ألوان الزجاج ، وبالقرب منها سوق

الوراقين الذين يبيعون أدوات الكتابة من الورق والأقلام والمداد . ويمتد مع الجدار الجنوبي للمسجد سوق آخر رائج ، كان موضع قصر معاوية بن أبي سفيان وقومه من قبل . ويجد الخارج عن يمين الباب الغربي المعروف بباب البريد حوانيت الفاكهة .

وبهذا المسجد حلقات تدرس فيها فنون العلم ، إذ يجلس المدرس على كرسي مرتفع يقرأ الكتب على الحاضرين ، على حين ينتحى معلمو الصبيان جانباً من جوانب المسجد يلقنون الصغار القراءة ومعهم معلم الخط كذلك . ولاحظ ابن بطوطة أن معلم الخط غير معلم القرآن ، وأن الأخير يعلم الصبيان قراءة القرآن دون كتابته في الألواح تنزيهاً لكتاب الله ، على حين يتولى معلم الخط تدريس الكتابة للصغار عن طريق كتابة الأشعار وما سواها . فكان الصبي يبدأ بالقراءة ثم الكتابة . وأشار ابن بطوطة إلى العالم المتقشف المحافظ تقي الدين بن تيمية ، وحضره يوم الجمعة بمسجد دمشق وهو يعظ الناس . فكان من جملة كلامه أن قال : إن الله ينزل إلى سماء الدنيا كنزولى هذا ؛ ونزل درجة من درج المنبر ، فعارضه فقيه مالكي يعرف بابن الزهراء ، وأنكر هذا القول ، فقامت العامة إلى هذا الفقيه ، وضربوه بالأيدى والنعال ضرباً كثيراً حتى سقطت

عمامته ، وظهر على رأسه غطاء من حرير ، فأنكروا عليه ذلك ، وحملوه إلى قاضي الحنابلة الذي أمر بسجنه .

* * *

وتحدث ابن بطوطة عن أهالى دمشق وطريقة حياتهم . فذكر أنهم لا يعملون يوم السبت ، وإنما يخرجون إلى المنتزهات وشطوط الأنهار ، ودوحات الأشجار ، بين البساتين النضرة والمياه الجارية ، ويقضون يومهم فى راحة وبهجة حتى يمسي الليل . وتكلم عن حب أولئك الأهالى لعمل الخير ، وعن الأوقاف الكثيرة التى خصصوها بمختلف الشؤون الاجتماعية ، « ففها أوقاف على العاجزين عن الحج ، يعطى لمن يحج عن الرجل منهم كفايته ، ومنها أوقاف على تجهيز البنات إلى أزواجهن ، وهن اللواتى لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن ، ومنها أوقاف لفكك الأسارى ، ومنها أوقاف لأبناء السبيل يعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويتزودون لبلادهم ، ومنها أوقاف على تعديل الطرق ورصفها ، لأن أزقة دمشق لكل واحد منها رصيفان فى جنبه يمر عليهما المترجلون ، ويمر الركبان بين ذلك ، ومنها أوقاف لغير ذلك من أفعال الخير » .

وضرب ابن بطوطة مثلاً على هذا النوع الأخير من الأوقاف بحادث شاهده بدمشق ، فقال : « مررت يوماً ببعض

أزقة دمشق ، فرأيت مملوكاً صغيراً قد سقطت من يده صحيفة من الفخار الصيني وهم يسمونها الصحن ، فتكسرت واجتمع عليه الناس ، فقال له بعضهم : اجمع شققها واحملها معك لصاحب أوقاف الأواني ، فجمعها وذهب الرجل معه إليه ، فأراه إياها ، فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن . وهذا من أحسن الأعمال ، فإن سيد الغلام لابد له أن يضربه على كسر الصحن أو ينهره ، وهو أيضاً ينكسر قلبه ويتغير لأجل ذلك ، فكان هذا الوقف جبراً للقلوب ، جزى الله خيراً من تسامت همته في الخير إلى مثل هذا . »

* * *

ولم يغفل ابن بطوطة غرضه في تأدية مناسك الحج برغم تجواله في بلاد الشام . فأخذ يعد نفسه للرحيل إلى الحجاز ، وانضم إلى ركب حججاج الشام ، الذي عرف بالركب الحجازي لخروجه إلى الأراضي المقدسة .

الحاج ابن بطوطة

خرج ابن بطوطة مع الركب الحجازي من دمشق أول شوال متجهاً إلى مكة . ووقف الركب عند مدينة بصرى مدة أربعة أيام ، ليلحق به من تخلف بدمشق لقضاء مآربه . فأنهز ابن بطوطة هذه المناسبة وزار الآثار الموجودة بهذه المدينة ، وشاهد مبرك ناقة الرسول ، حين وفد إلى بصرى في تجارة خديجة قبل بعثته ، ورأى مسجداً عظيماً شيد على هذا المكان المبارك . ثم استأنف الركب سيره حتى بلغ تبوك ، وكانت من المحطات الهامة على طريق القوافل إلى الحجاز ، يقيم بها الركبان للتزود بالمياه وغيرها لاجتياز ما بعدها من الصحراء . وكانت في تبوك عين ماء نزل عندها الرسول في غزوته المعروفة باسم هذه المدينة ، وتوضاً منها ، مما جعلها تعرف ببركة رسول الله . وحط الركب الشامي رحاله على هذه العين ، وأقام بها أربعة أيام للراحة وإرواء الجمال . « ومن عادة السقائين أنهم ينزلون على جوانب هذه العين ، ولم أحواض مصنوعة من

جلود الجواميس كالصهاريج الضخام يسقون منها الجمال ويملاؤن الروايا والقرب ، ولكل أمير أو كبير حوض كبير يسقى منه جماله وجمال أصحابه ، ويملاؤ رواياهم ، وسواهم من الناس يتفق مع السقائين على سقى جملة وملء قريته بشيء معلوم من الدراهم .

ومن تبوك أخذ الركب يسير مسرعاً مجتازاً صحراء موحشة ، وصل بعد مسيرة خمسة أيام فيها إلى بئر الحجر ، المعروف بحجر ثمود . وهى عين تفيض بالمياه ، لكن الركب لم يتزود منها ، وكذلك يفعل غيرهم من الناس مع شدة عطشهم ، اقتداء بما فعله الرسول حين مر بهذه العين فى غزوة تبوك ، إذ أسرع براحلته وأمر أن لا يسقى منها أحد . وشاهد ابن بطوطة بهذا المكان ديار ثمود منحوتة فى جبال من الصخر الأحمر ، ولها عتب منقوشة يظن رائيها أنها حديثة الصنعة ، ورأى بالقرب منها كذلك مبرك ناقة صالح عليه السلام بين جبلين هناك . ثم تابع الركب سيره حتى بلغ « العلا » .

« والعلا قرية كبيرة حسنة ، لها بساتين النخل والمياه »
يقيم بها الحجاج أربعة يتزودون ويغسلون ثيابهم . . . وأهل هذه القرية أصحاب أمانة ، وإليها ينتهى تجار نصارى الشام لا يتعدونها ، ويباعون الحجاج بها الزاد وسواه . « فأخذ منها

ركب الشام ما احتاج إليه من طعام ومياه ، ثم استأنف سيره حتى بلغ المدينة المنورة قرب المساء .

* * *

ولم يضيع ابن بطوطة فترة إقامة الركب بهذه المدينة سدى ، ولا سيما أنها تحفل بالكثير من الذكريات والآثار الإسلامية الرائعة . فزار قبر الرسول والمسجد الشريف والتقى بالمشرفين عليه . وكان إمام المسجد الشريف في ذلك الوقت بهاء الدين بن سلامة من كبار أهل مصر ، وكذلك كان سلفه ، إذ كانت مصر ترعى المدن المقدسة وتزودها بالعلماء والمال . فذكر ابن بطوطة أن « خدام هذا المسجد الشريف وسدنته فتيان من الأحابيش وسواهم ، وهم على هيات حسان وصور نظاف وملابس ظراف ، وكبيرهم يعرف بشيخ الخدام ، وهو في هيئة الأمراء الكبار ، ولهم المرتبات بديار مصر والشام ، ويؤتى ليلهم بها في كل سنة ، ورئيس المؤذنين بالحرم الشريف الامام المحدث الفاضل جمال الدين المطرى من مطرية ، قرية بمصر . »

أقام ابن بطوطة ورفاقه بالمدينة أربعة أيام ، وكانوا يبيتون بالمسجد ، حيث أوقد الناس فيه الشمع الكبير ، وأخذوا يرتلون القرآن ، على حين ترنم غيرهم بالأناشيد في مدح الرسول .

ووسط هذه المظاهر الدينية الرائعة خرج الحجاج من المدينة قاصدين مكة لأداء فريضة الحج .

وصل الركب إلى مكة صباحاً « وهى مدينة كبيرة متصلة البنيان مستطيلة فى بطن واد تحف به الجبال فلا يراها قاصدها حتى يصل إليها ، وتلك الجبال المطلة عليها ليست بمفرطة الشموخ . . . وهى بواد غير ذى زرع . . . ولكن سبقت لها الدعوة المباركة ، فكل طرفة تجلب إليها ، وثمرات كل شىء تجبى لها ، ولقد أكلت (أى ابن بطوطة) بها من الفواكه والعنب والتين والخوخ والرطب ما لا نظير له فى الدنيا .
وتجلب لها الفواكه والخضر من الطائف ووادى نخلة . »

* * *

وبدأ ابن بطوطة حديثه عن شعائر الحج وما قام به قائلا « وإذا كان فى أول يوم شهر ذى الحجة تضرب الطبول والدبادب فى أوقات الصلوات ، وبكرة وعشية ، إشعاراً بالموسم المبارك ، ولا تزال كذلك إلى يوم الصعود إلى عرفات .
فإذا كان اليوم السابع من ذى الحجة خطب الخطيب إثر صلاة الظهر خطبة بليغة يعلم الناس فيها مناسكهم ، ويعلمهم بيوم الوقفة . فإذا كان اليوم الثامن بكر الناس بالصعود إلى منى ، وأمراء مصر والشام والعراق وأهل العلم يبيتون تلك

الليلة بمنى ، وتقع المفاخرة بين أهل مصر والشام والعراق في إيقاد الشمع . . . فإذا كان اليوم التاسع رحلوا من منى بعد صلاة الصبح إلى عرفة . . . وعرفات بسيط من الأرض فسيح أفيع ، تحلق به جبال كثيرة ، وفي آخر بسيط عرفات جبل الرحمة ، وفيه الموقف . . . وفي أسفل هذا الجبل . . . صهاريج وجباب للماء ، وبمقربة منه الموضع الذي يقف فيه الإمام ويخطب . . . وإذا حان وقت النفر أشار الإمام المالكى بيده ، ونزل عن موقفه ، فدفع الناس بالنفر دفعة ترتج لها الأرض وترجف الجبال ، فياله موقفاً كريماً ، ومشهداً عظيماً ، ترجو النفوس حسن عقباه . »

« وكانت وقفتى الأولى يوم الخميس سنة ست وعشرين . . . ولا وقع النفر بعد غروب الشمس وصلنا مزدلفة عند العشاء الآخرة . . . ولا صلينا الصبح بمزدلفة غدونا منها إلى منى ، بعد الوقوف والدعاء بالمشعر الحرام . . . ومن مزدلفة يستصحب أكثر الناس حصبات الجمار ، وذلك مستحب ، . . . ولا انتهى الناس إلى منى بادروا الرمي ، بحجرة العقبة ، ثم نحروا وذبحوا ، ثم حلقوا ، وحلوا من كل شيء إلا النساء والطيب . . . وفي يوم النحر بعثت كسوة الكعبة الشريفة من الركب المصرى إلى البيت الكريم ، فوضعت في سطحه . فلما كان اليوم

الثالث بعد النحر أخذ المختصون ، فى إسبالها على الكعبة الشريفة ، وهى كسوة سوداء حالكة من الحرير ، مبطنة بالكتان ، وفى أعلاها طراز مكتوب فيه بالبياض . . . ولما كسيت شمرت أذيالها صوناً من أيدي الناس ، والمملك الناصر هو الذى يتولى كسوة الكعبة الكريمة ويبعث مرتبات القاضى والخطيب والأئمة والمؤذنين والفراشين والقومة ، وما يحتاج له الحرم الشريف من الشمع والزيت فى كل سنة .

وتحدث ابن بطوطة عن عطف الملك الناصر ، سلطان مصر ، على الأراضى المقدسة ، وأن الدعاء فى خطبة الجمعة كان باسمه أولاً ، وأشاد بذلك فى وصفه لإحدى الصلوات بمكة يوم الجمعة ، قائلاً : « فإذا خرج الخطيب أقبل لابساً ثوب سواد ، معتماً بعمامة سوداء ، وعليها طيلسان أسود ، كل ذلك من كسوة الملك الناصر ، وعليه الوقار والسكينة ، وهو يتهاذى بين رايتين سوداوين ، يتمسكها رجلان من المؤذنين ، وبين يديه أحد القومة فى يده الفرقة ، وهى عود فى طرفه جلد رقيق مفتول ، ينفضه فى الهواء ، فيسمع له صوت عال يسمعه من بداخل الحرم وخارجه . . . إعلاماً بخروج الخطيب . . . ثم يقصد المنبر ، والمؤذن الزمى — وهو رئيس المؤذنين — بين يديه ، لابساً السواد وعلى عاتقه السيف . . .

وتركز الرايتان على جانبي المنبر . . . فإذا استوى في عليا
الدرجات . . . وقف داعياً . . . ثم يقبل على الناس ، فيسلم
عن يمينه وشماله ويرد عليه الناس . . . فإذا فرغ الأذان ،
خطب الخطيب خطبة يكثر بها من الصلاة على النبي صلى الله
عليه وسلم . . . ثم يدعو للملك الناصر . . . فإذا فرغ من
خطبته صلى وانصرف ، والرايتان عن يمينه وشماله والفرقة أمامه
إشعاراً بانقضاء الصلاة . »

* * *

ولم يغفل ابن بطوطة عن الإشادة بالحياة الاجتماعية في مكة
وسط إسبابه في الحديث عن أماكنها المقدسة ، والشعائر
الدينية بها . فذكر ما تحلى به أهل مكة من مكارم الأخلاق
وما طبعوا عليه من حميد العادات . فكانوا يبالغون في إكرام
الغرباء والمنقطعين للعبادة والفقراء . وإذا أقام أحدهم وليمة بدأ
فيها بإطعام الفقراء والتلطف في دعوتهم والإحسان إليهم .
وأشار إلى أن أكثر المساكين المنقطعين يقيمون بالأفراق ،
حيث يطبخ الناس أخبازهم ، فإذا طبخ أحدهم خبزاً واحتمله
إلى منزله تبعه المساكين ، فيعطى لكل واحد منهم ما قسم له ،
ولا يردهم خائبين ، ولو كانت له خبزة واحدة فإنه يعطى
ثلثها أو نصفها ، طيب النفس بذلك من غير ضجر . ومن

أفعالهم الحسنة أن الأيتام الصغار يقعدون بالسوق ، ومع كل واحد منهم قفتان ، كبرى وصغرى ، وهم يسمون القفة « مكتلا » ، فيأتى الرجل من أهل مكة إلى السوق ، فيشتري الحبوب واللحم والخضر ، ويعطى ذلك للصبي ، فيجعل الحبوب فى إحدى قفتيه ، واللحم والخضر فى الأخرى ، ويوصل ذلك إلى دار الرجل ليبيأ له طعامه منها ، ويذهب الرجل إلى طوافه وحاجته ، فلا يذكر أن أحداً من الصبيان خان الأمانة فى ذلك قط ، بل يؤدى ما حمل على أتم الوجوه ، ولهم على ذلك أجره معلومة من النقود .

« وأهل مكة لهم ظرف ونظافة فى الملابس ، وأكثر لباسهم البياض ، فترى ثيابهم أبداً ناصعة ساطعة ، ويستعملون الطيب كثيراً ويكتحلون ويكثرون السواك بعيدان الأراك الأخضر » . وأعجب ابن بطوطة بحسن روائهم وصحتهم الحسنة ، وذكر معللاً ذلك بأنهم لا يأكلون فى اليوم إلا مرة واحدة بعد العصر ، ويقتصرون على هذه الوجبة ، ومن أراد الأكل فى سائر النهار أكل التمر .

واسترعى نظر ابن بطوطة أن « نساء مكة فائحات الحسن ، بارعات الجمال ، ذوات صلاح وعفاف ، وهن يكثرن التطيب حتى إن إحداهن لتبيت طاوية وتشتري بقوتها طيباً ، وهن

يقصدن الطواف بالبيت في كل ليلة جمعة ، فيأتين في أحسن
زى ، وتغلب على الحرم رائحة طيبين ، وتذهب المرأة منهن
فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عبثاً . »

* * *

ولم يبق ابن بطوطة طويلاً في مكة بعد أن انتهى من مناسك
الحج ، ولم يفكر كذلك في العودة إلى وطنه ، إذ تحركت
في نفسه غريزة التجوال وارتياذ البلاد ، وبدأ مرحلة جديدة
من الرحلات ، كانت الدرجة الأولى في سلم طويل ارتقاه
ابن بطوطة ، حتى وقف على قمة العالم المعروف على عهده ،
وشاهد عجائبه وآثاره ، قانعاً بأن يقضى من عمره نحواً من
عشرين سنة في أسفار متصلة ورحلات متعاقبة . وهكذا
حقق ابن بطوطة فراسة العالم المصرى برهان الدين ، ونبوءات
الشيخ المرشدى .

جولة في ربوع العراق

غادر ابن بطوطة مكة في عشرين من ذى الحجة في صحبة ركب العراق ، وكان أمير هذا الركب شيخاً يدعى شهاب الدين قلندر ، ممن كان يخلق لحيته وحاجبيه على طريقة القلندرية ، التي شاهد ابن بطوطة أتباعها في مدينة دمياط . لكن توفي هذا الرجل قبل تحرك الركب العراقي ، وخلفه رجل آخر من أهل الموصل يدعى محمد الخويج . وكان ركب العراق يضم عدداً لا يحصى من الناس ، « تموج بهم الأرض موجاً ، ويسIRON سير السحاب المتراكم ، فمن خرج عن الركب الحاجة ، ولم تكن له علامة يستدل بها على موضعه ضل عنه لكثرة الناس . » وكان هذا الركب مزوداً بالمؤن والحاجات التي تكفل لأفراده الراحة والطمأنينة ، من جمال تحمل الماء والطعام ، والأدوية والأشربة والسكر لمن يصيبه مرض ، فضلاً عن عدد آخر من الجمال حمل عليها من لا قدرة له على المشي . سار الركب ليلاً تتقدمه المشاعل ، حتى أصبحت الأرض

تتلاً نوراً ، وغدا الليل نهراً ساطعاً . وظل يضرب في طريقه إلى العراق نازلاً بالمحطات الهامة ، ومتزوداً منها بما يحتاج إليه من طعام وماء . وكان الركب إذا حط رحاله طبخ الطعام في قدور نحاسية عظيمة تسمى الدسوت ، وأطعم منها أبناء السبيل ومن لا زاد معه في الركب ..

* * *

ولما وصل الركب إلى أرض النجف انفصل ابن بطوطة عن الناس ، وعول على مشاهدة هذه البلاد ، بادئاً بذلك أول حلقة في سلسلة مشاهدات عديدة جديدة . وكانت بالنجف إذ ذاك مدينة من أبهى مدن العراق وأشهرها ، وتدعى مدينة « مشهد على ابن أبي طالب » . وهي عامرة بالأسواق والعلماء ، بها مدرسة عظيمة يسكنها الطلبة والصوفية من الشيعة ، ويضاف بها كل وارد عليها مدة ثلاثة أيام ، يتناول فيها الخبز واللحم والتمر مرتين في اليوم . وكان سكان هذه المدينة من غلاة الشيعة ، ويتولى تصريف شئونهم رجل يلقب بنقيب الأشراف ، يعين رأساً من السلطات المركزية ببغداد ، وله مطلق الحرية في إدارة المدينة .

وترك ابن بطوطة مدينة مشهد على متجهاً إلى مدينة واسط في رفقة ركب من عرب خفاجة ، الذين كانوا من أعظم الناس

شوكة ومهابة أثناء اجتيازهم البلاد العراقية ، وغدا السبيل الوحيد للسفر هو الاندماج في ركبهم . فاكثري ابن بطوطة جملاً بمساعدة أمير القافلة شامر بن دراج الخفاجي ، وخرج معهم إلى واسط . ولما وصلت القافلة إلى مدينة واسط أقامت بخارجها ثلاثة أيام للتجارة ، استغلها ابن بطوطة للدراسة المدينة وأحوالها .

لاحظ ابن بطوطة أن مدينة واسط من أشهر المدن في العناية بالقرآن الكريم ، إذ يحفظه أهلها ويحيدون قراءاته الصحيحة ، ويأتى إليهم أهل بلاد العراق لتلقى العلم عليهم في هذا السبيل ، وكان في القافلة التي صحبها ابن بطوطة جماعة من الناس أتوا لتجويد القرآن على من بها من الشيوخ . وشاهد بها ابن بطوطة مدرسة عظيمة لتعليم القرآن ، بها ثلاثمائة خلوة ، ينزلها الغرباء الذين ييغون العلم . وأضاف رئيسها الشيخ تقي الدين عبد المحسن الواسطي ابن بطوطة ، وزوده بالطعام والمال .

كذلك ذهب ابن بطوطة في أثناء إقامته بواسط إلى زيارة قبر أحمد الرفاعي ، بقرية تعرف بأمر عبيدة ، على مسيرة يوم من واسط . وبعث الشيخ تقي الدين مع ابن بطوطة ثلاثة من الأعراب رافقوه في رحلته القصيرة . وتصادف في أثناء وجود ابن بطوطة لزيارة قبر أحمد الرفاعي وصول حفيده الشيخ

أحمد قوجك ، الذى انتهت إليه رئاسة أتباع أحمد الرفاعى .
 فشاهد الاحتفال باستقبال الشيخ الجديد . وهناك لما انقضت
 صلاة العصر ضربت الطبول والدفوف ، وأخذ الفقراء فى
 الرقص . ثم صلوا المغرب ، وبسطوا الموائد عليها خبز الأرز
 والسمك واللبن والتمر . ولما فرغ الناس من الأكل وصلاة
 العشاء ، أخذوا فى الذكر ، والشيخ أحمد جالس على سجادة
 جده الشيخ الرفاعى يشاهدهم . وقد أعدوا أحمالاً من الحطب ،
 فأججوها ناراً ، ودخلوا فى وسطها يرقصون ، ومنهم من تمرغ
 فيها ، أو أخذ يأكلها بضمه حتى أطفئوها جميعاً . على حين
 شاهد غيرهم يأخذ الحية العظيمة ويعض بأسنانه على رأسها
 حتى يقطعها .

ولما انتهى ابن بطوطة من زيارة الشيخ الرفاعى عاد إلى
 مدينة واسط . فوجد الركب قد رحل ، فأسرع فى الطريق حتى
 لحقه ، وصاحبه حتى بلغ البصرة . وهناك لقي من سادتها
 كل ترحيب . فبعث إليه قاضيه حجة الدين صرة مملوءة تمرّاً ،
 باعها ابن بطوطة بتسعة دراهم ، أخذ الحمال الذى نقلها إلى
 السوق ثلثها أجرة له . كذلك أضافه بها أحد العلماء ويدعى
 علاء الدين بن الأثير ، ومنحه ثياباً ومالا .

واستعزى نظر ابن بطوطة ما وصلت إليه هذه المدينة من تدهور في الشئون الثقافية ، فقال « شهدت مرة بمسجدها صلاة الجمعة ، فلما قام الخطيب به إلى الخطبة وسردها ، لحن فيها لحناً كثيراً جليلاً ، فعجبت من أمره ، وذكرت للقاضي حجة الدين ، فقال لي : إن هذا البلد لم يبق منه من يعرف شيئاً من علم النحو ؛ وهذه عبرة لمن تفكر فيها ، سببانه مغير الأشياء ! ومقلب الأمور ! هذه البصرة التي إلى أهلها انتهت رئاسة النحو ، وفيها أصله وفروعه ، ومن أهلها إمامه الذي لا ينكر سبقه ، لا يقيم خطبها خطبة الجمعة على دعوته عليها ! » .

* * *

ولم يستطع ابن بطوطة أن يكبح جماح رغبته في التجوال ، إذ ساقه الطريق من البصرة إلى زيارة بعض المدن بغربي إيران ، ثم عاد منها إلى العراق ، حيث نزل بالكوفة ، وسلك في ذلك طريقاً آخر قائلاً : « ومن عادتي في سفرى أن لا أعود على طريق سلكتها ما أمكننى ذلك . » وهناك لاحظ ما طرأ على هذه المدينة من انحلال ، وتحطم سورها وتعرضها لإغارات البدو . على أنه زار مقابر الكوفة (وشاهد بها قبر ابن ملجم الذي اغتال على ابن أبي طالب ، ورأى هذا القبر مغطى بسواد

حالك ، لأن أهل الكوفة يأتون كل سنة بالحطب الكثير ،
ويوقدون النار على موضع القبر سبعة أيام ، تأسفاً على هذا
الحادث الشنيع والحطب الجلل .

واسترعى نظر ابن بطوطة كثرة الشيعة بالقرب من
الكوفة ، إذ زار بالقرب منها مدينة تسمى « الحلة » كل أهلها
من طائفة الإمامية الاثني عشرية^(١) ، وشاهد بالقرب من
سوقها مسجداً على بابه ستر من حرير مسدول ، يسميه أهالي
المدينة مشهد صاحب الزمان ، ويعتقدون أن إمامهم محمد بن
الحسن العسكري دخل ذلك المسجد وغاب فيه ، وأنه سيخرج
منه ، وأنه الإمام المنتظر ، فذكر ابن بطوطة أن « من
عادتهم أن يخرج في كل ليلة مائة رجل من أهل المدينة ، عليهم
السلاح ، وبأيديهم سيوف مشهورة ، فيأتون أمير المدينة بعد
صلاة العصر ، فيأخذون منه فرساً مسرجاً ملجماً ، أو بغلة
كذلك ، ويضربون الطبول والأنفار والبوقات أمام تلك الدابة ،
ويتقدمها خمسون منهم ، ويتبعها مثلهم ، ويمشي آخرون عن
يمينها وشمالها ، ويأتون مشهد صاحب الزمان ، فيقفون بالباب ،
ويقولون : باسم الله يا صاحب الزمان ، باسم الله اخرج ،

(١) الإمامية الاثني عشرية طائفة من طوائف الشيعة .

قد ظهر الفساد ، وكثر الظلم ، وهذا أوان خروجك ، فيفرق الله بك بين الحق والباطل ، ولا يز الو ن كذلك ، وهم يضر بون بالأبواق والطبول والأنفار إلى صلاة المغرب . »

اتجه ابن بطوطة من الكوفة إلى بغداد ، ومرّ في طريقه على كربلاء التي استشهد فيها الحسين بن علي بن أبي طالب . وكانت مدينة صغيرة تحف بها حدائق النخل ، تسقى من الفرات ، وبها مدرسة عظيمة وزاوية يقدم فيها الطعام للزائرين . وشاهد بها ابن بطوطة مشهد الحسين ، على بابة الحجاب ، ولا يدخل أحد إلا عن إذنهم ، فيقبل العتبة الشريفة ، وهي من الفضة ، وعلى الضريح قناديل الذهب والفضة ، وعلى الأبواب ستائر الحرير .

ولما وصل ابن بطوطة إلى مدينة بغداد كانت عظمها قد زالت^(١) ، وأصبحت تستحق قول القائل :

لقد أقام على بغداد ناعيا

فليبكها لخراب الدهر باكيها

كانت على مائها والحرب موقدة

والنار تطفئ حسناً في نواحيها

(١) زالت عظمّة بغداد بسبب تدمير هولاكو المغول لها سنة ٦٥٦ هـ .

ترجى لها عودة في الدهر صالحه

فالآن أضمر منها اليأس راجيها

مثل العجوز التي ولت شبيبته

وبان عنها جمال كان يحظيها

فشاهد ابن بطوطة الجانب الغربي من بغداد مشوهاً بالخراب ، بعد أن كان أول قسم فيها ظهر به العمران . على حين احتفظ جانبها الشرقي بشيء من أسواقها العظيمة . وشاهد أعظم هذه الأسواق ويدعى سوق « العجيبة » ، كل صناعة فيه لها مكان مخصوص ، وفي أحد جوانبه المدرسة المستنصرية ، التي مثلت فيها المذاهب الأربعة في التدريس . لكل مذهب مكان ، فيه مسجد وموضع للتدريس . ويجلس المدرس في قبة خشب صغيرة على كرسي مغطى بالبسط ، عليه السكينة والوقار ، لا بساً ثياباً سوداء ، وعن يمينه ويساره معبدان ، يعبدان كل ما يمليه ، وكذلك سائر ترتيب الدراسة حسب المذاهب الأخرى . وكان بالمدرسة حمام للطلبة ودار للوضوء .

على أن أهل بغداد احتفظوا بمرحهم وحجهم للتمتع بما بقي في مدينتهم من مباحج . فكانوا يخرجون رجالاً ونساء للترفة كل ليلة ، ولهم يوم في كل جمعة لزيارة شيخ من أوليائها . وكان صاحب الأمر على العراق حين وصول ابن بطوطة بغداد « أبو سعيد

بهادر خان» ، الذى أعجب ابن بطوطة بموكبه وحاشيته
 فعندما يريد أبو سعيد الرحيل يُبعد موكب حافل له ، ويأتى
 كل أمير من الأمراء بعسكره وطبوله وأعلامه ، ويقف فى موضع
 لا يتعداه ، مخصص له إما فى الميمنة أو الميسرة . فإذا تم
 الجمع وتكاملت الصفوف ، ركب الملك ، وتضرب طبول
 الرحيل ، فيأتى كل أمير منهم ويسلم على الملك ، ثم يعود إلى
 موقعه . ويتقدم موكب الملك الحجاب والنقباء ، ويليهم أهل
 الطرب ، وعددهم مائة رجل عليهم أبهى الثياب . وأمام أهل
 الطرب عشرة من الفرسان معهم عشرة من الطبول يدقون عليها .
 ويتولى أمير الجند تنظيم الموكب ، ويسأل عن تخلف
 عن الركب ، وينزل به أقصى العقوبة . فإذا غاب أحد عن
 الاشتراك مع فرقته ، أخذ وعلق فى رقبتة كيس مملوء رملا ،
 ويمشى على قدميه حتى يصل إلى دار الأمير ، فينبطح على
 الأرض ويضرب خمسا وعشرين مفرقة على ظهره ، سواء أكان
 رفيعاً أم وضيعاً ، لا يستثنى منهم أحد . وقبل مسير الموكب
 يغنى أهل الطرب ، ثم يتحرك الموكب ، يحف بالسلطان
 الأمراء عن اليمين والشمال ، ومن ورائه أصحاب الأعلام والطبول
 والبوقات ، ثم ممالك السلطان ، ثم الأمراء على اختلاف مراتبهم .

ومن بغداد قام ابن بطوطة بعدة رحلات إلى بعض مدن العراق الهامة قبل مغادرته هذا القطر ، حيث عزم على أداء فريضة الحج للمرة الثانية . وشاهد في رحلاته الأخيرة آبار البترول بالعراق الواقعة بالقرب من مدينة تكريت . فبعد أن غادر هذه المدينة في طريقه إلى الموصل ، مر بقرية تعرف « بالقيارة » على مقربة من دجلة . وقال ابن بطوطة « هنالك أرض سواد ، فيها عيون تنبع بالقار ، ويصنع له أحواض ، ويجتمع فيها ، فتراه أشبه الصلصال على وجه الأرض ، حالك اللون ، صقيلا رطباً ، وله رائحة طيبة ، وحول تلك العيون بركة كبيرة سوداء ، يعلوها شبه الطحلب الرقيق ، فتتدفقه إلى جوانبها فيصير أيضاً قاراً ، وبمقربة من هذا الموضع عين كبيرة ، فلذا أرادوا نقل القار منها ، أوقدوا عليها النار ، فتتشف بالنار ما هنالك من رطوبة مائية ، ثم يقطعونه قطعاً ، وينقلونه . »

وقضى ابن بطوطة في هذه الجولة الأخيرة شهرين عاد بعدها إلى بغداد ، حيث وجد ركب الحاج قد تهيأ بها تحت إمرة محمد الخويج وهو بعينه أمير الركب الذي وفد معه ابن بطوطة إلى العراق . وكان التعب قد حل بابن بطوطة حين غادر بغداد قاصداً الحجاز للمرة الثانية ، إذ أصابه إسهال عانى

منه كثيراً في أثناء الرحلة . ووصف حالته قائلاً : « كانوا يتزلونني من أعلى الحمل مرات كثيرة في اليوم ، والأمير يتفقد خالي ، ويوصي بي . ولم أزل مريضاً حتى وصلت مكة حرم الله تعالى . » وكان وصوله مكة إذ ذاك سنة ٧٢٨ هـ ، أي بعد سنتين تقريباً من حجته الأولى .

وظل الضعف يعمل عمله في ابن بطوطة ، حتى إنه طاف وسعى بين الصفا والمروة راكباً ، ولم يستطع مغادرة مكة ، بعد أن انقضى الحج في تلك السنة ، فأقام بها سنة كاملة ، قضائها في الدرس ، حيث نزل في المدرسة المظفرية . وفي نهاية العام حج للمرة الثالثة في سنة ٧٢٩ هـ ، وكان قد استرد نشاطه وحيويته . فتجدد عنده الشوق للارتحال ، وإشباع رغبته في التجوال . وتوجه إلى زيارة أقوام جدد من المسلمين على ساحل أفريقية الوسطى الشرقي ، وعزم على الذهاب إلى هذه البلاد ماراً ببلاد اليمن .

حول البحر الجنوبي

خرج ابن بطوطة من مكة سنة ٧٣٠ هـ (١٣٣٠ م) ،
 قاصداً بلاد اليمن . فبلغ جدة ميناء الحجاز على البحر الأحمر ،
 وركب منها البحر في مركب يسميه أهاليها « الجلبة » . وهاب
 ابن بطوطة الرحلة في أول الأمر لأنه لم يسبق له أن ركب البحر
 قبل هذه التجربة . وصاحبه في هذه الرحلة جماعة من أهل
 اليمن عائدتين إلى بلادهم ، ركبوا بدورهم في هذه السفن
 المعروفة « بالجلب » حاملين فيها زادهم ومتاعهم . وكانت
 الرياح طيبة مواتية حين أبحروا إلى اليمن ، ولكن بعد يومين
 تغيرت الرياح ، وهاج البحر حتى طغت المياه على المراكب ،
 واشتد هلع المسافرين وجزعهم ، وظلت تتقاذفهم الأمواج
 حتى وصلوا مرسى يعرف باسم « رأس دوائر » فيما بين عيذاب
 وسواكن .

وهناك نزلوا بالساحل ، ووجدوا به عريش قصب على
 هيئة مسجد ، فاستراحوا فيه ، وأقاموا به بعض الوقت . وأعجب

ابن بطوطة بهذا الميناء ، وبصيد السمك فيه ، فكان الناس يأخذون الثوب ويمسكون بأطرافه ويخرجونه وقد امتلأ سمكاً ، كل سمكة في حجم الذراع ، ويسمى بالبورى . فاشترى المسافرون منه ما سد حاجتهم . وجاء إلى رهط ابن بطوطة هناك طائفة من البجاة سكان هذه الأرض التى نزلوا بها . وهم سود اللون ، لباسهم ملاحف صفر ، ويشدون على رؤوسهم عصائب حمراً فى عرض الأصبع . وكانوا أهل نجدة وشجاعة ، سلاحهم الرماح والسيوف ، يركبون جمالا يسمونها الصهب ، ويضعون فوقها السروج .

استأجر الرهط المسافر منهم جمالا ، وسافروا معهم فى منطقة مملوءة بالغزلان ، لم يتعرض لها البجاة بسوء ، أو صيد . وأخيراً وصلوا إلى جزيرة سواكن التى لا حظ ابن بطوطة أن المياه تجلب لها فى القوارب ، فضلا عن الصهاريج المقامة بها ليتجمع بها ماء المطر . ومن سواكن ركبوا البحر مرة أخرى إلى اليمن . ووصف ابن بطوطة الطريق قائلا : « وهذا البحر لا يسافر فيه بالليل لكثرة أحجاره ، وإنما يسافرون فيه من طلوع الشمس إلى غروبها ، ويرسون وينزلون إلى البر ، فإذا كان الصباح صعدوا إلى المركب . وهم يسمون رئيس المركب « الربان » ، ولا يزال أبداً فى مقدم المركب ، ينبه

صاحب السكان على الأحجار ، وهم يسمونها " النبات " .

* * *

وبعد ستة أيام من مغادرتهم سواكن وصلوا إلى مدينة تسمى « حكي » ، أكرم سلطانها المسمى عامر بن ذويب ابن بطوطة واحتفى به ، وكانا قد تعارفا في موسم الحج السابق . وأقام ابن بطوطة في ضيافته أياماً ، ثم سافر بجرأاً إلى مدينة زبيد . وقال إنها من أبهى وأغنى مدن اليمن ، « ولأهلها لطافة الشمالك وحسن الأخلاق وجمال الصور ، ولنسائها الحسن الفائق الفائق ، . . . ولأهل هذه المدينة سبوت النخل المشهورة ، وذلك أنهم يخرجون في أيام البسر والرطب في كل سبت إلى حدائق النخل ، ولا يبق بالمدينة أحد من أهلها ولا من الغرباء ، ويخرج أهل الطرب وأهل الأسواق لبيع الفواكه والحلاوات . »

على أن ابن بطوطة أعجب أيما إعجاب بنساء هذه المدينة وتقاليدهن ، إذ « تخرج النساء ممتطيات الجمال في المحامل ، ولهن مع ما ذكرناه من الجمال الفائق الأخلاق الحسنة والمكارم . وللغريب عندهن مزية ، ولا يمتنعن من تزوجه ، كما يفعل نساء بلادنا ، فإذا أراد السفر خرجت معه وودعته ، وإن كان بينهما ولد فهي تكفله ، وتقوم بما ينبغي عليه إلى أن يرجع أبوه ، ولا تطالبه في أيام الغيبة بنفقة ولا سوة لا سواها ؛

وإذا كان مقيماً فهي تقنع منه بقليل النفقة والكسوة . لكنهن لا يخرجن عن بلدن أبداً ، ولو أعطيت إحداهن ما عسى أن تعطاه على أن تخرج من بلدها لم تفعل . »

أقام ابن بطوطة في هذه المدينة في ضيافة فقهاءها ، فأكرموه وأروه بساتينهم وحدائقهم . وزار علماءها والأولياء المقيمين في ضواحيها . ثم سافر إلى مدينة « تعز » حاضرة ملك اليمن . وكانت عبارة عن ثلاثة أحياء ، يسكن أحدها السلطان وحاشيته ، والثاني يسكنه الأمراء والجنود ، والأخير يقيم به عامة الناس ، وبها السوق التي يسمونها « المحالب » . ونزل ابن بطوطة في هذه المدينة في ضيافة قاضي قضائها صفي الدين الطبري ، وأقام عنده ثلاثة أيام .

وفي اليوم الرابع من نزول ابن بطوطة في هذه المدينة ، وهو يوم الخميس ، اصططحبه القاضي لمقابلة السلطان ، حيث يجلس لعامة الناس في هذا اليوم . فسلم ابن بطوطة على السلطان وروى المقابلة قائلاً : « وكيفية السلام عليه أن يمس الإنسان الأرض بسبابته ، ثم يرفعها إلى رأسه ، ويقول : أدام الله عزك . . . وقعد القاضي عن يمين الملك ، وأمرني فقعدت بين يديه ، فسألني عن بلادي . . . وعن ملك مصر والعراق . . . فأجبته عما سأل من أحوالهم ، وكان وزيره بين يديه ، فأمره بإكرامى . »

* * *

ووصف ابن بطوطة طريقة جلوس هذا الملك ، إذ
 « يجلس فوق دكانة مفروشة مزينة بثياب الحرير ، وعن يمينه
 ويساره أهل السلاح ، ويليهم منهم أصحاب السيوف والدرق ،
 ويليهم أصحاب القسي ، وبين يديهم في الميمنة والميسرة الخاجب ،
 وأرباب الدولة ، وكاتب السر وأمير جنندار (حارس الملك)
 على رأسه ، والشاوشية وهم من الجنادرة وقوف على بعد ، فإذا
 قعد السلطان صاحوا صيحة واحدة باسم الله ، فإذا قام فعلوا
 مثل ذلك ، فيعلم جميع من بالمشور^(١) وقت قيامه ووقت
 قعوده . »

وكان الطعام الذى يقدم في مجلس الملك نوعين ، طعام
 للعامة وآخر للخاصة . ويأكل من الأخير السلطان وقاضى
 القضاة وكبار الأشراف والفقهاء والضيوف . أما الطعام العام
 فيأكل منه سائر الفقهاء والقضاة ووجوه الأجناد والناس .
 وأقام ابن بطوطة في ضيافة الملك أياماً ، ثم رحل إلى مدينة
 صنعاء .

استرعى نظر ابن بطوطة في هذه المدينة نزول الأمطار بها

(١) المشور ، مجلس السلطان للاستقبال .

صيفاً ، إذ هو من أبناء حوض البحر الأبيض المتوسط الذى تهطل أمطاره شتاء . فذكر أن المطر فى صنعاء « إنما ينزل فى أيام القيظ ، وأكثر ما يكون نزوله بعد الظهر من كل يوم فى ذلك الأوان . فالمسافرون يستعجلون عند الزوال لئلا يصيبهم المطر ، وأهل المدينة ينصرفون إلى منازلهم لأن أمطارها وابلة متدفقة ، ومدينة صنعاء مفروشة كلها ، فإذا نزل المطر غسل جميع أزقتها وأنقاها . »

غادر ابن بطوطة صنعاء إلى عدن ميناء بلاد اليمن العظيم ، ومن أهم المرافئ بها ، لما تأتى إليه من سفن الهند وغيرها من أقاصى البلاد . ونزل ابن بطوطة بها فى ضيافة أحد كبار التجار فيها ويدعى ناصر الدين الفأرى . وذكر أن هذا التاجر كان يضيف كل ليلة نحواً من عشرين تاجراً ، وله غلمان وخدم كثيرون . ولاحظ ابن بطوطة بها كذلك عظم ثراء التجار ، وكثرة المفارحات والمباهاة فيما بينهم .

أرض الصومال

عبر ابن بطوطة البحر من عدن إلى زيلع ، ودون مذكراته قائلاً : « سافرت من مدينة عدن فى البحر أربعة أيام ،

ووصلت زيلع ، وهى مدينة البربرة ، وهم طائفة من السودان شافعية المذهب . وبلادهم صحراء مسيرة شهرين ، أولها زيلع وآخرها مَقْدَشُو . ومواشيهم الجمال ولهم أغنام مشهورة السمن ، وأهل زيلع سود الألوان . « ولم يعجب ابن بطوطة بمدينة زيلع رغم ما شاهده من رواج فى أسواقها ، إذ قال : « إنها أقدر مدينة فى المعمور ، وأوحشها وأكثرها نقتاً ، وسبب ننتها كثرة سمكها ودماء الإبل التى ينحرونها فى الأزقة . ولما وصلنا إليها اخترنا المبيت بالبحر على شدة هوله ، ولم نبت بها لقدرها . »

سافر ابن بطوطة من زيلع إلى مَقْدَشُو بطريق البحر ، ووصلها بعد خمس عشرة يوماً . وذكر ما بينها وبين مصر من اتصال تجارى ، ورواج الصناعات المصرية بها ، كما أشاد باهتمام أهلها بالتجار الوافدين عليها . فكان « من عادة أهل هذه المدينة أنه متى وصل مركب إلى المرسى تصعد الصنابق ، وهى القوارب الصغار إليه ، ويكون فى كل صنبوق جماعة من شبان أهلها ، فيأتى كل واحد منهم بطبق مغطى فيه الطعام ، فيقدمه لتاجر من تجار المركب^١ ، ويقول هذا نزيلي ، وكذلك يفعل كل واحد منهم^٢ ، ولا ينزل التاجر من المركب إلا إلى نزيله من هؤلاء الشبان ، إلا من كان كثير التردد إلى البلد ، وحصلت له معرفة بأهله ، فإنه ينزل حيث

شاء . فإذا نزل عند نزيله باع ما عنده واشترى له . ومن اشترى منه ببخس أو باع منه بغير حضور نزيله فذلك مردود عندهم ، ولم يمنع في ذلك . »

* * *

ونزل ابن بطوطة في ضيافة علماء هذه المدينة وعند سلطانها ، واحتفوا به منذ استقبله وهو في المركب . وأشاد بذلك قائلا : « ولا صعد الشبان إلى المركب الذي كنت فيه ، جاء إلى بعضهم ، فقال له أصحابي ، ليس هذا بتاجر ، وإنما هو فقيه ، فصاح بأصحابه وقال لهم : هذا نزيل القاضي . وكان فيهم أحد أصحاب القاضي ، فعرفه بذلك ، فأتى إلى ساحل البحر في جملة من الطلبة ، وبعث إلى أحدهم ، فنزلت أنا وأصحابي وسلمت على القاضي وأصحابه . »

اصطحب القاضي ابن بطوطة إلى سلطان مقدشو ، الذي يلقب بالشيخ ، إذ كانت العادة ألا ينزل الفقيه أو الشريف الوافد إلى هذه البلاد عند أحد إلا بعد مقابلة السلطان . وكان هذا القاضي الذي رافق ابن بطوطة يدعى بابن البرهان ، من أصل مصري . فأخذ ابن بطوطة إلى حضرة السلطان وأعلمه أنه قد وصل من أرض الحجاز . فبعث السلطان إلى القاضي بطبق فيه أوراق التنبول والفوفل ، أخذ منها ابن بطوطة عشر

أوراق مع قليل من الفوفل ، ونال القاضى بعضاً منها وكذلك الطلبة .
 وشرح ابن بطوطة هذه العادة الخاصة بتقديم ورق التنبول
 مع وصف لهذا النبات أيضاً . فقال إن التنبول شجر يغرس
 كما يغرس العنب ، ويصنع له معرشات من القصب ، كما
 يعمل للعنب ، ليصعد عليها . وليس لشجر التنبول ثمر ،
 وإنما المقصود منه ورقه ، الذى يشبه ورق العليق^(١) . إذ تتجنى
 أوراقه ، ويقدم منها رب البيت للضيوف ، فإذا أعطاة خمس
 ورقات منها ، فكأنما أعطاه الدنيا وما فيها . ويستعمل مع هذا
 الورق ما يسمى بالفوفل^(٢) ، وهو شئ أشبه بجوز الطيب ، يكسر
 ويضعه الإنسان فى فمه ، ثم يأخذ معها ورق التنبول ويمضغها
 مع الفوفل ، مما يجعل نكهة الفم طيبة ، ويزيل ما به من
 رائحة كريهة ، ويساعد على الهضم . ويتناول المرء عادة هذا
 المزيج فى الصباح ليجدد به نشاطه .

* * *

وأمر السلطان أن ينزل ابن بطوطة بدار الطلبة ، وكانت
 معدة لضيافة من يتلقى العلم ، وتقع على مقربة من دار السلطان ،
 حسنة الفرش والترتيب . وجاء الطعام إلى ابن بطوطة من عند

(١) طعم هذا الورق يشبه القرفل .

(٢) الفوفل نوع من النخل ، تحبل ثماراً أشبه بالتمر .

السلطان زاساً مع أحد الوزراء . ووصف ابن بطوطة هذا الطعام بأنه « أرز مطبوخ بالسمن ، يجعلونه في صحفة خشب كبيرة ، ويجعلون فوقه صحاف الكوشان ، وهو الإدام من الدجاج واللحم والحوت والبقول . ويطبخون الموز قبل نضجه في اللبن الحليب ، ويجعلونه في صحفة ، ويجعلون اللبن المريب في صحفة ، ويجعلون عليه الليمون المصبر ، وعناقيد الفلفل المصبر المخلل والمملوح والزنجبيل الأخضر ، ” والعنبا “ ، وهي مثل التفاح ، ولكن لها نواة ، وهي إذا نضجت شديدة الحلاوة ، وتؤكل كالفاكهة ، وقبل نضجها حامضة كالليمون ، يصبرونها في الخل . وهم إذا أكلوا اللقمة من الأرز أكلوا بعدها من هذه الموالح والمخللات . »

ولاحظ ابن بطوطة إفراط أولئك السكان في الأكل ، وضعامة أجسامهم ، ووصف ملابس عظمائهم ، وهي من الثياب المصرية الصنعة ، وذكر ذلك في حديثه عن حضوره صلاة الجمعة مرة معهم ، فقال : وجاءني القاضي والطلبة وأحد وزراء الشيخ ، وأتوني بكسوة ، وكسوتهم فوطه خز يشدها الإنسان في وسطه عوض السراويل ، فإنهم لا يعرفونها ، ودراعة من المقطع المصرى معلمة ، وفرجية من القدسي المبطن ،

وعمامة مصرية معلمة . . . وأتينا الجامع ، فصلينا خلف المقصورة . فلما خرج الشيخ من باب المقصورة سلمت عليه مع القاضي ، فرحب ، وتكلم بلسانهم مع القاضي ، ثم قال باللسان العربي : قدمت خير مقدم وشرفت بلادنا وأنستنا . . . ثم خرج من باب المسجد ، فلبس نعليه ، وأمر القاضي أن ينتعل ، وأمرني أن أنتعل ، وتوجه إلى منزله ماشياً ، وهو بالقرب من المسجد ، ومشى الناس كلهم حفاة ، ورفعت فوق رأسه أربع قباب من الحرير الملون . . . وكان لباسه في ذلك اليوم فرجية قدسي أخضر ، وتحتها من ثياب مصر وطروحاتها الحسان ، وهو متقلد بفوطة حرير ، وهو معتم بعمامة كبيرة . »

* * *

ورحل ابن بطوطة من أرض الصومال ، وقصد جنوب بلاد العرب مرة أخرى . وابتدأ هذه الفرصة وأدى فريضة الحج للمرة الرابعة ، ثم عاد إلى مصر قاصداً مشاهدة أراض جديدة ، قد وصل إليها الإسلام منذ فترة قصيرة قبل قيامه برحلته الطويلة . وكانت وجهته آسيا الصغرى ، حيث بدأ الأتراك العثمانيون نشاطهم لنشر الإسلام هناك ، وتكوين مجد سيامي جديد للإسلام .

٧

الفتوة والفروسية شعار الأتراك العثمانيين

أرض الحظ والحب

دخل ابن بطوطة بزيارته لآسيا الصغرى فى بلد ضم جماعة مغامرة ادخرها المستقبل لرسم خريطة الشرق العربى فى العصر الحديث . وكانت هذه الجماعة عنصراً من جنس أسوى يعرف بالأتراك هاجر إلى بلاد الدولة العباسية وانتشر فى أرجائها . وظهر على مسرح السياسة جماعة من أولئك الأتراك عرفوا بالسلاجقة ، دأبوا على توسيع رقعة الدولة الإسلامية . فاتجهوا نحو آسيا الصغرى ، واتخذوا من مدينة قونية والمنطقة المحيطة بها مستقراً لهم .

ولكن سرعان ما دب الضعف فى دولة السلاجقة وظهرت هجرات قبائل تركية أخرى ، حلت إحداها بالقرب من إمارة السلاجقة بآسيا الصغرى . وعرفت هذه القبيلة التركية الأخيرة رؤساء كباراً هياؤا لها مكانة كبرى على أنقاض إمارة السلاجقة

المتداعية . وبذ أولئك الرؤساء زعيم يدعى عثمان نسبت إليه تلك القبيلة وما تفرع عنها من مجد سياسى وغدا أبنائها يطلقون على أنفسهم الأتراك العثمانيين .

وكان عثمان فى الرابعة والعشرين من عمره حين تولى شئون قبيلته سنة ١٢٨٨ م . واشتهر بحسن القيادة وجراً القلب والصبر على قتال الأعداء . وتجلت مواهبه منذ كان صغيراً يتجول مع قبيلته ، فقد كان يقيم بالقرب من مضارب قبيلته شيخ يدعى « أدب على » عرف بسعة العلم والورع . وكان عثمان يتردد على هذا الشيخ ، وداوم على زيارته لما رأى فيه من العلم والفضل والصلاح . ولكن زاد تعلق عثمان بهذا الشيخ بعد أن رأى ابنته وتسمى « مال خاتون » وما هى عليه من الجمال البارع والطلعة البهية .

وكاشف عثمان الشيخ « أدب على » بما يكنه فؤاده من الحب لابنته وسأله الاقتان بها . فأنكر عليه أبوها ذلك لما كان من فارق بينه وبين عثمان فى الناحية الاجتماعية . ولكن عثمان دأب على زيارة الشيخ رغم ارتحاله إلى منطقة بعيدة حيث لم يستطع الابتعاد عن حبيبته . وكان الشيخ لا يرفض أن يضيف عثمان كلما نزل فى رحابه . ثم حدث فى إحدى الليالى التى قضها عثمان فى بيت الشيخ « أدب على » أن رأى حلماً

غريباً . فقد رأى بديراً يصعد من صدر الشيخ « أدب على » ثم مال إلى صدره وغاب فيه . ثم خرجت من صلبه شجرة عظيمة أخذ شكلها يعظم وجمالها يزيد بالتدريج إلى أن صارت شجرة باسقة .

ورأى عثمان كأن منابع الدجلة والفرات والدانوب والنيل تنفجر من أصل هذه الشجرة ، وأن مياه هذه الأنهار تموج بالسفن والزوارق . وشاهد كذلك أودية بها مدن فاخرة وتعلوها المآذن ، والهلل يضيء من السماء . ولم يلبث أن قامت زوبعة عصفت بأوراق الشجرة الهائلة ، واتجهت بعض أوراقها نحو القسطنطينية ، وتابع عثمان هذه الأوراق إلى القسطنطينية حيث وجد خاتماً عظيماً ، تناوله ليضعه في إصبعه ، ولكن استيقظ إذ ذاك .

قص عثمان رؤياه على الشيخ « أدب على » . فوجد الشيخ في الرؤيا فالأحسن وطالماً سعيداً ، وتوسم الشرف والمجد والفخر والسلطان لأولاد عثمان من « مال خاتون » . ولم يعترض على زواج عثمان من ابنته ، وتولى تلميذ للشيخ عقد قران عثمان . وعندما صار عثمان أمير قبيلته بنى تكية لهذا التلميذ وأوقف عليها أوقافاً عظيمة من القرى والأرض الزراعية . وبدأ عثمان نشاطه الحربي بعد أن تحققت المرحلة الأولى

من حلمه وصار سيد قبيلته . فأخذ يستولى على البلاد والمناطق المجاورة له ، وحرص على تطبيق العدل والإنصاف على الجماعات التي اندرجت تحت لوائه . وسرعان ما تلاحق نجمه حين توفي آخر سليل للأمير السلجوقي الجالس على عرش مدينة قونية . فاستولى عثمان على المدينة وسار منها شمالاً مخترباً آسيا الصغرى والمدن بها تسقط في يده الواحدة تلو الأخرى ، حتى وصل إلى شاطئ البحر الأسود .

وكان ابن عثمان ويدعى أورخان يساعد أباه في عمليات الفتح ، واستولى سنة ١٣٢٦ على مدينة بروسه . واستقبل عثمان ابنه استقبالا حاراً وهناه بهذا الفوز الباهر . ولكن الموت قد أخذ يطرق باب عثمان . فلم يجزع ، وإنما استدعى ابنه أورخان وقال له « أى بنى ! إلى أموت ، ولكن غير آسف ولا مضطرب لأنى أترك ورأى خير من يخلفنى وهو أنت يا ولدى العزيز . أى بنى ! عليك بتقوى الله فى السر والعلانية ، وانشر العدل ، فهو أساس الملك . وكن رحيماً فإن الله قد وصف نفسه بالرحمة ، وليكن أضعف الناس عندك القوى ، حتى تأخذ له الحق . روج مبادئ الإسلام ، واعمل بكتاب الله وسنة رسوله ، فإنك إن عملت بوصيتى كنت من الأولياء الذين فازوا برضاء الله . » وأوصى عثمان بأن ينقل رفاته إلى بروسه ، ولما لفظ النفس

الأخير احترمت وصاياها وبني له هناك مقبرة هائلة . وهكذا كان مؤسسوا الدولة العثمانية يضعون البذور التي شاهد نبتها ابن بطوطة ، ولا سيما حرصهم على نشر الإسلام بآسيا الصغرى . ونجم عن مجهودات الزعماء العثمانيين انتشار التصوف ، وتعدد طرق الدراويش . وإلى جانب هذه الطرق الصوفية أدت أعمال العثمانيين إلى ظهور نظام الفتوة ، الذي كان الطابع الإسلامى للفروسية العربية . ولكن أخذ هذا النظام مظهراً جديداً فى آسيا الصغرى على يد الأتراك ، عرف باسم الأخيات ، وهى تسمية مشتقة من كلمة أخى .

وكان نظام الأخيات أو الإخوان أشبه بنظام النقابات الاقتصادية ، وانتشرت فى سائر مدن آسيا الصغرى ، وعرف أفرادها بالشهامة وإكرام الضيف . وقد شاهد ابن بطوطة كثيراً من هذه الجماعات ، ولقى منها كل كرم وحفاوة ووصفها وصفاً رائعاً كشف عن المستقبل الباهر الذى كان ينتظر الأتراك العثمانيين .

الأخيات أو جماعات الإخوان

نزل ابن بطوطة في « العلايا » على الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى ، وكانت حينئذ ميناء كبيراً يسكنه التركمان ، وينزله تجار مصر والإسكندرية والشام للحصول على أخشابها الجيدة . ومنها بدأ ابن بطوطة طوافه ببلاد الأناضول ، ملاقياً من أهاليها كل إكرام ورعاية ، إذ هم على قوله « أكثر خلق الله شفقة . . . وكنامتى نزلنا بهذه البلاد . . . يتفقد أحوالنا جيراننا من الرجال والنساء ، وهن لا يحتجين ، فإذا سافرنا عنهن ودعونا كأنهم أقاربنا وأهلنا . وترى النساء باقيات لفراقنا ، متأسفات . ومن عاداتهم بتلك البلاد أن ينخبزوا الخبز في يوم واحد من الجمعة ، يعدون فيه ما يقوتهم سائرهما . فكان رجالهم يأتون إلينا بالخبز الحار في يوم خبزه ، ومعه الإدام الطيب إطرافاً لنا بذلك ، ويقولون لنا ، إن النساء بعثن هذا إليكم ، وهن يطلبن منكم الدعاء . »

ولاحظ ابن بطوطة انتشار نظام جماعات الإخوان أو الفتيان بسائر مدن الأناضول وقراه ، يدعى رئيسهم « بالأخى » . وكانت هذه الجماعات تضم الشبان الأعزاب أبناء الطائفة الواحدة أو القرية الواحدة فيقدمون عليهم رئيساً لهم ، ويتعاونون على البر

ولا كرام الضيف الغريب . ووصف ابن بطوطة هذا النظام وصفاً جيداً ، وأبدى ما اتصفوا به من شهامة ، فضلاً عن إشادته بالترحيب الذى ناله عندهم .

ذكر ابن بطوطة أنه « لا يوجد فى الدنيا مثلهم أشد احتفالاً بالغرباء من الناس ، وأسرع إلى إطعام الطعام ، وقضاء الحوائج ، والأخذ على أيدي الظلمة . . . و « الأخي » عندهم رجل يجتمع أهل صناعته وغيرهم من الشبان الأعزاب والمتجردين ، ويقدمونه على أنفسهم . . . ويبني زاوية ، ويجعل إليه فيها الفرش والسرير وما يحتاج إليه من الآلات . ويخدم أصحابه بالنهار فى طلب معاشهم ، ويأتون إليه بعد العصر بما يجتمع لهم ، فيشترون به الفواكه والطعام ، إلى غير ذلك مما يتفق فى الزاوية . فإن ورد فى ذلك العصر مسافر على البلد ، أنزلوه عندهم ، وكان ذلك ضيافة لديهم ، ولا يزال عندهم حتى ينصرف . وإن لم يرد وارد ، اجتمعوا هم على طعامهم ، فأكلوا وغنوا ورقصوا ، وانصرفوا إلى صناعتهم بالغدو ، وأتوا بعد العصر إلى مقدمهم بما اجتمع لهم » .

ووصف ابن بطوطة كرم هذه الجماعات قائلاً : نزلت فى مدينة أنطاكية عند شيخ يدعى شهاب الدين الحموى ، فأتى أحد هؤلاء الفتيان وتكلم مع الشيخ باللسان التركى ، « ولم أكن

يومئذ أفهمه . وكان عليه أثواب خلقة ، وعلى رأسه قلنسوة لبد . فقال لى الشيخ : أتعلم ما يقول هذا الرجل ؟ ، فقلت ، لا أعلم ما قال ؛ ، فقال لى : إنه يدعوك إلى ضيافته أنت وأصحابك ؛ فعجبت منه ، وقلت له نعم ! فلما انصرف ، قلت للشيخ ، هذا رجل ضعيف ، ولا قدرة له على تضييفنا ، ولا نريد أن نكلفه . فضحك الشيخ ، وقال لى ، هذا أحد شيوخ الفتيان الأخية ، وهو من الخرازين (الإسكافية) ، وفيه كرم نفس ، وأصحابه نحو مائتين من أهل الصناعات قد قدموه على أنفسهم ، وبنوا زاوية للضيافة ، وما يجتمع لهم بالنهار أنفقوه بالليل . فلما صليت المغرب ، عاد إلينا ذلك الرجل ، وذهبنا معه إلى زاويته ، فوجدناها زاوية حسنة ، مفروشة بالبسط الرومية الحسان ، وبها الكثير من ثريات الزجاج العراقى ، وفى المجلس خمسة من اليايسيس . واليايسوس شبه المنارة من النحاس له أرجل ثلاث ، وعلى رأسه شبه غطاء من نحاس ، وفى وسطه أنبوب للفتيلة ، ويملاً من الشمع المذاب ، وإلى جانبه آنية نحاس ملأة بالشمع ، وفيها مقراص لإصلاح الفتيل ، وأحدهم موكل بها ، ويسمى عندهم « الخراجى » .

وقد اصطف فى المجلس جماعة من الشبان ، ولباسهم

الأقبية ، وفي أرجلهم الأخفاف ، وكل واحد منهم متحزم ، على وسطه سكين في طول الذراعين ، وعلى رؤوسهم قلانس بيض من الصوف ، بأعلى كل قلنسوة قطعة موصولة بها في طول ذراع وعرض أصبعين . فإذا استقر بهم المجلس نزع كل واحد قلنسوته ووضعها بين يديه ، وتبقى على رأسه قلنسوة أخرى من الزدخاني وسواه ، حسنة المنظر . وفي وسط مجلسهم شبه مرتبة موضوعة للواردين . ولما استقر بنا المجلس عندهم ، أتوا بالطعام الكثير والفاكهة والحلواء ، ثم أخذوا في الغناء والرقص . فراقنا حالهم ، وطال عجبنا من سماحهم وكرم أنفسهم ، وانصرفنا عنهم آخر الليل وتركناهم بزوايتهم . »

وهكذا كان ابن بطوطة موضع إكرام الإخوان حيثما ذهب في بلاد الأناضول ، وتنافسوا فيما بينهم على ضيافته عندهم ومن معه من الركب . فذكر قصة طريفة تبين ذلك حين دخوله مدينة تسمى « لاذق » ، فقال : « وعند دخولنا لهذه المدينة ، مررنا بسوق لها ، فنزل إلينا رجال من حوانيتهم ، وأخذوا بأعنة خيلنا ، ونازعهم في ذلك رجال آخرون . وطال بينهم النزاع حتى سل بعضهم السكاكين على بعض ، ونحن لا نعلم ما يقولون . فخفنا منهم ، وظننا أنهم ممن يقطعون الطريق ، وأن تلك مدينتهم ، وحسبنا أنهم يريدون نهبنا . ثم بعث الله لنا رجلا

حاجباً يعرف اللسان العربى ، فسألته عن مرادهم . فقال لإنهم من الفتيان ، وأن الذين سبقوا إلينا هم أصحاب الفتى أخى سنان ، والآخرون أصحاب الفتى أخى طومان ، وكل طائفة ترغب أن يكون نزولكم عندهم .

فمجبنا من كرم نفوسهم ، ثم وقع بينهم الصلح على المقارعة ، فمن كانت قرعته ، نزلنا عنده أولاً . فوقعت قرعة أخى سنان ، وبلغه ذلك ، فأتى إلينا فى جماعة من أصحابه ، فسلموا علينا ، ونزلنا بزاوية له ، وأتى بأنواع الطعام . ثم ذهب بنا إلى الحمام ، ودخل معنا ، وتولى خدمتى بنفسه ، وتولى أصحابه خدمة أصحابى . . . ثم خرجنا من الحمام ، فأتوا بظعام عظيم وحلواء وفاكهة كثيرة ، وبعد الفراغ من الأكل ، قرأ القراء آيات من الكتاب العزيز ، ثم أدخلوا فى السماع والرقص .

* * *

ومن أطرف ما لا حظ له ابن بطوطة ادعاء بعض الفقهاء الأتراك معرفة اللغة العربية ، وما صادفه من مواقف نتيجة التباس بعض الألفاظ العربية بالتركية . فروى أنه نزل فى مدينة تسمى « كاوية » وجاء الفقيه ليقدمه إلى الناس بها . ولكنه خاطب ابن بطوطة وأصحابه بالفارسية ، ولم يكونوا يعرفونها ، فأجابوه بالعربية ، دون أن يفهم أحدهما الآخر .

وعندئذ أراد الفقيه ستر نفسه أمام الناس ، حين ظنوا أنه يعرف اللسان العربي ، وهو لا يعرفه ، فقال لهم « هؤلاء يتكلمون بالكلام العربي القديم ، وأنا لا أعرف إلا العربي الجديد . . . وهؤلاء تنجب كرامتهم لأنهم يتكلمون باللسان العربي القديم ، وهو لسان النبي صلى الله عليه وسلم . » ويذكر ابن بطوطة أنه أدرك هذا فيما بعد ، حيث حفظ ما قاله هذا الفقيه وفهمه بعد أن درس اللغة الفارسية .

وذكر كذلك قصة أخرى في هذا الصدد ، قائلا :
 « بعثت أحد الخدام ليشتري التبن للدواب ، وبعثت أحدهم يشتري السمن ، فأتى أحدهما بالتبن ، والآخر دون شيء ، وهو يضحك . فسألناه عن سبب ضحكك ، فقال ، إنا وقفنا على دكان بالسوق ، فطلبنا منه السمن ، فأشار إلينا بالوقوف ، وكلم ولدأ له ، فدفعنا له الدراهم ، فأبطأ ساعة ، وأتى بالتبن ، فأخذناه منه ، وقلنا له ، « إنا نريد السمن ! » فقال : « هذا السمن » ! . واتضح أنهم يقولون للتبن سمن . بلسان الترك ، وأما السمن فيسمى عندهم « رباغ » .

* * *

ولاقى ابن بطوطة كثيراً من الناس ، ممن يدعون التدين ، وليس لهم في هذه الصفة نصيب . فقال إنه وجد أحد الحجاج

الذين يعرفون اللغة العربية ، « ورغبنا منه أن يسافر معنا إلى قسطنطينية ، وكسوته ثوباً مصرياً من ثيابي ، وأعطيته نفقة تركها لعياله ، وعينت له دابة لركوبه ، ووعدته الخير . وسافر معنا ، فظهر لنا من حاله أنه ساقط الهمة ، خسيس الطبع ، سيئ الأفعال . وكنا نعطيه الدراهم لنفقتنا فيسرق منها . وكنا نحتمله لما كنا نكابه من عدم المعرفة بلسان الترك . وانتهت حاله إلى أن فضحناه ، وكنا نقول له في آخر النهار ، يا حاج ! كم سرقت اليوم من النفقة ؟ ! فيقول كذا ، فنضحك منه ، ونرضى بذلك .

* * *

واختتم ابن بطوطة طوافه ببلاد الأناضول بالذهاب إلى صنوب ، وأشار إلى الصراع الحربي المبكر بين الأتراك والروم ، الذين كانت بيدهم القسطنطينية . وكانت صنوب من أجل ذلك مدينة محصنة ، يحيط بها البحر من جميع جهاتها إلا واحدة ، وهي جهة الشرق ، ولها هنالك باب واحد لا يدخل إليها أحد إلا بإذن أميرها . واشتهر من بين من تولى إدارتها من الأمراء شخص يدعى غازي ، « وكان شجاعاً مقداماً ، وهبه الله خاصية في الصبر تحت الماء ، وفي قوة السباحة . وكان يسافر في الأجفان (المراكب) الحربية لحرب الروم ، فإذا كانت

الملاقاة ، واشتغل الناس بالقتال ، غاص تحت الماء ، وبيده
آلة حديد ينحرق بها أجفان العدو ، فلا يشعرون بما حل بهم ،
حتى يدهمهم الغرق . »

وأقام ابن بطوطة بهذه المدينة أربعين يوماً ، استطاع
بعدها أن يجد مركباً تابعاً للروم ، ذهب به إلى شبه جزيرة
القرم ، مودعاً أرض الأتراك ، ونزل ببلاد تابعة للمغول ، وهم
جنس جديد اعتنق الدين الإسلامى ، ووصف لنا ابن بطوطة
حياته وعاداته .

٨

في منازل المغول

إن مع العسر يسرا

كانت المرحلة الجديدة من رحلة ابن بطوطة في بلاد المغول سجلا حافلا بعظمة الإسلام ، وأنه دين لا يستطيع إنسان أن ينال منه مهما كانت سطوته وجبروته . إذ سبق رحلة ابن بطوطة إلى ديار المغول أحداث جسام نزلت ببلاد المسلمين على أيدي أولئك الناس ، وبدا أنهم قوم عتاة لا يأبهون للنظم الحضارية أو أساليب المدنية . غير أن الإسلام سرعان ما غزا المغول وجعل منها أناساً لهم رسالتهم في سلم الحضارة العالمية . وقد سجل ابن بطوطة ما شاهده من آثار إغارات المغول على بلاد المسلمين ، ثم ما طرأ عليهم من حياة جديدة في ظل الإسلام .

بدأ ظهور المغول على مسرح الدولة الإسلامية قبل رحلة ابن بطوطة بقرن تقريباً . إذ حدث أن قبائل المغول التي كانت تسكن أصقاع منغوليا الشاسعة اتحدت تحت رئاسة شخص يدعى جنكيزخان الملقب « بغضب الله » سنة ١١٨٩ م . وكان

أفراد هذه القبائل مشهورين بالشجاعة ، ونساؤهما يحاربن كما
كما يحارب الرجال ، وسلاحهم الرئيسى القوس والنشاب ،
ويأكلون جميع الدواب ، ولا يبقون على أحد فى حروبهم ،
بل يذبحون النساء والأطفال على حد سواء ! وهم معتادون عبور
الأنهار العميقة بالقرب ، أو بإمساك أذنان الخيول فيسبحون
وراءها ، ولا يعرفون تعباً أو نصباً ، ويستقبلون الموت من غير
خوف ولا وجل .

وقد استغل جنكيزخان هذه الصفات التى امتاز بها
المغول وقام بزحف واسع استولى فيه على الصين سنة ١٢١٩ م .
ثم أخذ يوجه حملاته على بلاد المسلمين غرباً حين قتل نائب
خوارزم شاه بعض تجار أرسلهم جنكيز خان إلى بلاد ما وراء
النهر بحجة أنهم جاءوا ليتسقطوا أخباره . فثار عندئذ
جنكيزخان وزحف بجيشه الهائل على فرغانة .

وانسابت جيوش جنكيزخان انسياب الثلوج من قن
الجبال ، واكتسحت جنود الملك خوارزم شاه ، كما تكتسح
السيول ما تصادفه من الحصى والرمال . وتحولت المدن الكبرى
التي كانت مراكز للمدنية وأسواقاً للتجارة ، خراباً ياباً .
فأصبحت بخارى ركماً وأنقاضاً وكانت تشتهر برجال العلم
والورع . وكذلك سمرقند عاصمة بلاد ما وراء النهر تعرضت

للتخريب وقتل أهلها حتى إنه لم يبق من سكانها غير ٥٠٠٠ شخص يقصون أنباء المغول وأعمالهم المروعة على الناس .
وعاد جنكيزخان إلى وطنه بعد أن قوض معالم المدنية في أواسط آسيا وفارس . وانقسمت إمبراطوريته أربعة أقسام بين أبنائه الأربعة ، أخذ أحدهم الصين ، وآخر المنطقة الوسطى من إمبراطورية المغول ، على حين نال أكبر أبناء جنكيزخان الجزء الغربي من الإمبراطورية ، ولقب « خان القبيلة الذهبية » ، وغدت فارس فيما بعد من نصيب هولاكو .

وكان هولاكو صاحب الأعمال السيئة في بغداد ، والمطيح بالخلافة العباسية من المشرق . فقد انتهز توتر العلاقات بينه وبين الخليفة العباسي ببغداد إذ ذاك وهو المستعصم وزحف على العاصمة سنة ٦٥٦ هـ . وحاصر المغول بغداد أربعين يوماً حصاراً لا هوادة فيه ، ونصبوا المنجنيقات على جميع القلاع والحصون المشرفة عليها ، ثم طفقوا يمحطونها ببوابل من الحجارة حتى أحدثوا في أسوارها فجوة كبيرة . وعندئذ أذعن الخليفة لطلب الصلح .

ولكن ما كاد يتم الصلح حتى أصدر هولاكو أمره المشؤم بنهب بغداد وذبح أهلها ، فقد خرج الشيوخ والنساء والأطفال من منازلهم حاملين المصاحف على أكفهم وهم يتوسلون ويتضرعون إلى الجنود بلهجة تفتت الأكباد أن يبقوا على حياتهم . ولكن

الغزاة لم يأبهوا لهذا التضرع والتوسل وأنزلوا بالأهالى كافة ألوان التعذيب .

وبعد أن استمرت هذه المذابح الدامية تعصف ببغداد أربعة أيام ، قضى هولاءكو على الخليفة وأبنائه ، وأمست بغداد موطن العلم وعاصمة الثقافة الإسلامية خراباً يباباً . ويروى المؤلفون القدامى قصة هذا الحراب والتدمير بأسلوب مؤثر فياض . فيقول ابن الأثير « إن غارة المغول هي الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التى عفت الأيام والليالى عن مثلها ، عمت الخلائق ، وخصت المسلمين » .

وعبر المغول نهر الفرات بعد تخريب بغداد ، وواصلوا زحفهم حتى وقف لهم عند « عين جالوت » بالشام السلطان بيبرس ملك مصر فيما بعد ، وأوقع بهم هزيمة فادحة ، وتعقبهم إلى ما وراء حلب ونظف الشام منهم سنة ٦٥٨ هـ - ١٢٦٠ م . وجاءت هذه الواقعة الكبرى حداً فاصلاً فى تاريخ الإسلام والمسلمين . إذ نهض الإسلام وأخذ يستعيد مجده التالى . فاستطاع بوساطة دعائه أن يجذب أولئك الفاتحين المتبربرين ويحملهم على اعتناقه . وكان أولئك الدعاة يتصفون بالصبر والشجاعة حتى كملت جهودهم بالنجاح . وكان بركة خان (١٢٥٦ - ١٢٦٧ م) أول من أسلم من أمراء المغول ، وهو رئيس القبيلة

الذهبية ، وحاكم القسم الغربى من إمبراطورية المغول ، الممتد من وسط آسيا إلى أقصى بلاد روسيا الحالية .

وينسب لإسلام بركة خان إلى تاجرين التقى بهما في بخارى . فقد سألهما عن عقائد الإسلام ، واقتنع بشرحهما واعتنق هذا الدين ، ونشره بين رعاياه الذين أصبحوا غلاة متحمسين . فكان كل فارس في جيشه يحمل سجادة للصلاة ليصلى عندما يأتى ميعاد الصلاة ، كما لم يكن في جيشه شخص يتعاطى المسكرات . وقرب إليه مشاهير العلماء والمفسرين ورجال الحديث والفقهاء ، وعقد لهم المناظرات الدينية وحرص على مشاهدتها .

وقد قامت علاقات صداقة ومودة بين بركة خان والظاهر بيبرس سلطان المماليك في مصر . إذ احتفى السلطان بشرزمة من جند القبيلة الذهبية يبلغ عددها المائتين ، وكان العداء قد دب بين هؤلاء حاكم فارس المغولى وبركة خان ، ومع سلطان مصر كذلك ، مما أدى إلى تدعيم العلاقات بين مصر ومغول القبيلة الذهبية .

وهكذا حين يم ابن بطوطة وجهه لزيارة مغول القبيلة الذهبية كان الإسلام قد انتشر بينهم ، وسجل قوة الإسلام في استعادة

سالف مجده ، ومحاولة مدن المسلمين التابعة لمحمد أوزبك خان
القبيلة الذهبية إذ ذاك النهوض من كبوتها .

أرض المغول

رست السفينة التي أقلت ابن بطوطة عبر البحر الأسود في
مرسى يدعى « الكرش » ، ثم انتقل إلى ثغر كافا ، وكان
أكثر سكانه من أهل جنوة ، جعلوه من أهم مراكز التجارة
لهم . ورحل عنها إلى مدينة القرم ، وكانت تابعة للسلطان محمد
أوزبك ، خان المغول المعروفين بالقبيلة الذهبية . وأكرم حاكم
مدينة القرم المسمى تلكتمور وفادة ابن بطوطة ، ودعاه للركوب
معه لزيارة السلطان محمد أوزبك بعاصمته . وكانت وسائل
الانتقال بين مدن المغول أو البلاد التابعة لهم سهلة ميسورة ،
وأهمها استخدام العجلات في السفر . ووصف ابن بطوطة
وصفاً شاملاً العربات التي ركبها في رحلته .

فذكر أنهم « يسمون العجلة « عربية » ، وهي عجلات
تكون للواحدة منهن أربع بكرات كبار ، ومنها ما يجره فرسان ،
ومنها ما يجره أكثر من ذلك . وتجرها أيضاً البقر والجمال ،
على حال العربية في ثقلها أو خفتها ، والذي يخدم العربية يركب
إحدى الأفراس التي تجرها ، ويكون عليه سرج ، وفي يده

سوط . يحركها للمشى ، وعود كبير يصوبها به إذا عاجت
 عن القصد ، ويجعل على العربى شبه قبة من قضبان خشب ،
 مربوط بعضها إلى بعض بسيور جلد رقيق . وهى خفيفة الحمل ،
 وتكسى باللد ، ويكون فيها طبقتان (فتحات) مشبكة ، ويرى
 الذى بداخلها الناس ولا يرونه ، ويتقلب فيها كما يحب وينام
 ويأكل ، ويقرأ أو يكتب وهو فى حال سيره . وهناك عربات
 خاصة تحمل المتاع والأزواد وعليها أقفال لحفظ ما بها . »

أعد ابن بطوطة لنفسه عربى على هذا الطراز ، كان يجرها
 جمال . وسارت القافلة عبر الطريق « كسير الحجاج فى درب
 الحجاز ، يرحلون بعد صلاة الصبح ، وينزلون ضحى ،
 ویرحلون بعد الظهر ، وينزلون عشيا . وإذا نزلوا حلوا الخيل
 والإبل والبقر عن العربات ، وسرحوها للرعى ليلا ونهاراً ،
 ولا يعانى أحد مشقة علف الدواب ، لأن المنطقة التى اجتازوها
 غنية بالنبات الصالح لغذاء الحيوانات . وكان الطريق آمناً ،
 لا يعترضه لصوص بسبب شدة أحكام المغول . فمن كان يضبط
 عنده فرس مسروق ، يكلف برده إلى صاحبه مع تسعة أمثاله ،
 فإن لم يقلد على ذلك أخذ أولاده عوضاً ، وإن لم يكن له
 أولاد يذبح كما تذبح الشاة .

ولما ابتعد الركب عن القرم واجه مستنقعا كبيرا خاضت

فيه العربات يوماً كاملاً . وكثر خوض الدواب والعربات في الماء حتى اشتد وحله وزادت صعوبة اجتيازها . فأكرم الأمير ابن بطوطة غاية الإكرام ، حيث سمح له بأن يتقدم بعربته الركب حتى لا يعاني من متاعب الطريق . وأخيراً وصل الركب في الطريق مدينة أزاك ، حيث استراح بها بعض الوقت قبل استئناف السفر .

وخرج الناس ورؤساء المدينة لاستقبال الأمير ، وبسطت له فرش من حرير ليمشي عليها ، فقدم الأمير على نفسه ابن بطوطة ، ودعاه لأن يسبقه في المشي عليها ، ليبين للناس قدر هذا الضيف العظيم الذاهب إلى خان المغول . وانتهز ابن بطوطة فرصة الإقامة بهذه المدينة وأخذ في مشاهدتها ودراسة أحوالها ، شأنه في كل البلاد التي يقف بها في رحلته .

* * *

شاهد ابن بطوطة بهذه المدينة كثرة الخيول ورخص أثمانها ، وأنها تنقل إلى بلاد الهند حيث تباع هناك . فذكر أن ما ينقل منها إلى الهند في المرة الواحدة أكثر من ستة آلاف فرس ، ولكل تاجر في هذا القطيع بين المائة والمائتين أو أكثر من ذلك . ويستأجر التاجر لكل خمسين من القرس راعياً يقوم بالعناية عليها ، ويرعاها كالغنم . فيركب فرساً منها

وبيده عصا طويلة فيها حبل ، فإذا أراد أن يقبض على فرس
منها اقترب منه بالفرس الذي ركبه ، ورعى الحبل في عنقه وجذبه
فيركبه ويترك الآخر . وذكر ابن بطوطة أن الهند تبتاع هذا
النوع من الخيول لقوتها وقدرتها على تحمل المشاق ، على حين
تستورد خيول السباق من اليمن وعمان وفارس .

ثم استأنف الركب سيره حتى بلغ مدينة الماجر بالقوقاز ،
حيث قابل بها ابن بطوطة تاجراً يهودياً من أهل الأندلس ،
يتكلم العربية . فسأله ابن بطوطة عن بلاده وكيف جاء إلى
هنا . فذكر له هذا التاجر أنه وصل إلى هنا براً ، وأن رحلته
استغرقت أربعة شهور .

وعلى أربعة أيام من مدينة الماجر بلغ ابن بطوطة معسكر خان
المغول ، وكان عبارة عن مدينة متنقلة في موضع يقال له
« بش دغ » ، ووصفها قائلاً « رأينا مدينة عظيمة تسير بأهلها ،
فيها المساجد والأسواق ، ودخان المطبخ صاعد في الهواء ، وهم
يطبخون في حال رحيلهم ، والعربات تجرها الخيل بهم ،
فإذا بلغوا المنزل ، نزلوا البيوت عن العربات ، وجعلوها على
الأرض ، وهي خفيفة الحمل . وكذلك يصنعون بالمساجد
والخوانيت . »

وتشرف ابن بطوطة بمقابلة خان المغول محمد أوزبك ، وكان على دين الإسلام ، ويعمل على نشر رايته في البلاد التابعة للمدينة القسطنطينية . وشاهد عن كُتب حياة هذا السلطان الخاصة ، وما فيها من مباحج . فذكر أنه يصطحب معه نساءه وكبار رجال دولته ، وتسمى زوجته بالخاتون ، ونسوته جميعاً بالخواتين . فإذا أراد أن يكون عند واحدة منهن بعث إليها يعلمها بذلك ، فتهيأ له . وكان من عادته أن يجلس يوم الجمعة بعد الصلاة ومعه نسوته لاستقبال رعاياه ، ودراسة أحوالهم . فتنصب له قبة مزينة بالذهب ، عبارة عن قضبان خشب مكسوة بصفائح الذهب ، وفي وسطها مقعد من خشب يقعد السلطان عليه ، ويجلس حوله نسوته وأولاده ، ثم يحيط بهم كبار رجال الدولة . وبعد ذلك يسمح للناس بالدخول عليه للتحية ، ويظل المجلس منعقداً إلى بعد صلاة العصر ، حيث يعود كل شخص إلى مقره .

* * *

وأعجب ابن بطوطة بنظام الحياة التي سارت عليها زوجات السلطان . فكان موكب الخاتون أو الزوجة عبارة عن عربة عليها قبة مزينة بالذهب والفضة ، تجرها خيول مجللة بأثواب الحرير المذهب ، ويركب خادم العربة أحد الخيول ، على

حين تجلس الخاتون فى عربتها ، وعن يمينها امرأة من حاشيتها تسمى « أولو خاتون » أى الوزيرة ، وعن شمالها امرأة أخرى تسمى كجك خاتون أى الحاجة ، وبين يديها ست من الجوارى الصغار يقال لهن البنات ، فائقات الجمال ، متناهيات الكمال ، ومن ورائها ثنتان منهن تستند إليهن ، وعلى رأس الخاتون تاج صغير محلى بالجواهر ، بأعلاه ريشة طائر ، وعليها ثياب حرير مرصعة بالجواهر . وبين يدي الخاتون عشرة أو خمسة عشر من الفتيان ، قد لبسوا ثياب الحرير ، ويبد كل واحد منهم عمود ذهب .

على أن ابن بطوطة عمد إلى الذهاب إلى بلاد الهند ، التى بلغت شهرتها أقاصى بلاد المغول . فسار فى ركب تجارى مخترقاً وسط آسيا حتى دخل هذه البلاد الرائعة ، وبدأ سلسلة جديدة من مشاهداته .

ابن بطوطة في الهند

شعب جديد

عندما دخل ابن بطوطة بلاد الهند عادت به الذاكرة إلى تلك الفترة الأولى التي أخذ الإسلام يشق فيها طريقه إلى هذه الرقعة الحافلة بألوان المدنيات القديمة . فكانت الجهات التي بدأ بزيارتها أولى البقاع التي استولى عليها المسلمون حين أرسل الحجاج بن يوسف الثقفي وإلى العراق جيشاً تحت قيادة ابن عمه محمد بن القاسم سنة ٨٩ هـ لفتح السند .

ونجح محمد بن القاسم ابن عم الحجاج في إخضاع السند وهي الوادي الأدنى ودلتا نهر السند . وكان ثغر الديبل (كراتشي الحالية) من المدن التي استولى عليها المسلمون ، وحطموا بها تمثالا لبوذا كان ارتفاعه يبلغ أربعين ذراعاً . واستولى القائد المسلم كذلك على البيرون ، ومكانها الآن حيدر آباد الحديثة ، ووصلت الفتوحات إلى مدينة الملتان في جنوب البنجاب .

وكان في مدينة الملتان مزاراً مقدس للإله بوذا ، يدعى
البد ، تهدي إليه الأموال وتندر له النذور ، ويحج إليه أهل
السند ، فيطوفون به ويحلقون رؤوسهم ولحاهم عنده . وكان
سدنة هذا المزار أو القائمون على حراسته يلبسون الصنم جلداً
أحمر لا يظهر منه إلا عينان عبارة عن جوهرتين كبيرتين ، وعلى
رأسه إكليل ذهب ، والصنم متربع على سرير ، وذراعه على
ركبتيه .

وقد ظلت الفتوح الإسلامية بالسند غير مستقرة الأوضاع
بعد عودة القائد المسلم ، حتى القرن العاشر الميلادي ، إذ بدأ
«غزو» جديد في عهد محمود الغزنوي سلطان الدولة الغزنوية التي
قامت في بلاد الأفغان واستقلت عن الخلافة العباسية . وكانت
«غزنة» عاصمة هذه الدولة تقع فوق هضبة مرتفعة تشرف على
سهول الهند الشمالية ، والتي يمكن الوصول إليها عن طريق
وادي كابل الذي سلكه ابن بطوطة حين دخل الهند . وكان
لهذا الموقع أثر كبير في تشجيع محمود الغزنوي على القيام بحملات
كبرى في الهند فيما بين سنتي ١٠٠١ - ١٠٢٤ م ، خاض
غمار سبع عشرة حملة على هذه البلاد .

وأدت حملات محمود الغزنوي إلى ضم البنجاب وحاضرتي
«لاهور» ، وكذلك الملتان وجزء من السند إلى بلاده . فتوطد

بذلك الإسلام في بلاد البنجاب منذ ذلك الوقت بشكل قوى متين . وعاد محمود من غزواته محملاً بغنائم وفيرة من معابد الهندوس ، وغدا في نظر معاصريه محطم الأصنام ، وحامى حمى الإسلام الصحيح .

ومهدت بذلك حملات الغزنويين في الهند الطريق إلى تطور حياة المسلمين في الجهات التي استقروا بها . فغدت لهم إمارات بالهند ، تعلو وتنخفض حسب التقلبات السياسية ، وتستقل في شؤونها تارة كلما سنحت لها الظروف . وظهر من أولئك الحكام الذين استقلوا بكافة البلاد التي سكنها المسلمون في شمال الهند حكام مدينة دهلي . وكانت هذه الحاضرة الجديدة مقصد أنظار ابن بطوطة ، وبدأ بذلك رحلته في الهند .

مدينة دهلي

دخل ابن بطوطة مدينة دهلي في فترة كان فيها السلطان غائباً خارجها ، فاستقبله حاجب الغرباء ويدعى الشريف « المازندراني » ، واصطحبه إلى دار الضيافة . ووصف ابن بطوطة هذه الدار قائلاً : « ولما وصلت إلى الدار التي أعدت لئزولي وجدت فيها ما يحتاج إليه من فرش وبسط وحصر ، وأوان

ومزير الرقاد . وأسترهم بالهند خفيفة الحمل ، يحمل السرير منها الرجل الواحد ، ولا بد لكل أحد أن يستصحب السرير في السفر ، يحمله غلامه على رأسه ، وهو أربع قوائم مخرولة ، يعرض عليها أربعة أعواد ، وتنسج عليها صفائر من الحرير أو القطن ، فإذا نام الإنسان عليه لم يحتاج إلى ما يربطه به ، لأنه يعطى الرطوبة من ذاته . وجاءوا مع السرير بمضربيتين ومخدتين ولحاف ، كل ذلك من الحرير . وعادتهم أن يجعلوا للمضربات واللحف وجوهاً بيضا تغشيها من كتان أو قطن ، فتى توضع غسلوا الوجوه المذكورة ، وبقي ما في داخلها مصوناً . »

* * *

ونال ابن بطوطة في دار الضيافة ما لا مؤناً بقدر ما احتاج إليه ، ولكنه صمم على أن ينتهز فرصة غياب السلطان ، ويזור المدينة ويشاهد ما بها قبل التشرف بمقابلة السلطان . وكانت دهلي إذ ذاك مدينة كبيرة المساحة وال عمران ، تنقسم إلى أربعة أقسام يحيط بها سور واحد . « والسور المحيط بمدينة دهلي لا يوجد له نظير ، عرض حائطه إحدى عشرة ذراعاً ، وفيه بيوت يسكنها حفاظ الأبواب ، وفيها مخازن للطعام ويسمونها ”الأنبارات” ومخازن للعدد . . . ويمشي في داخل السور

الفرسان والرجال من أول المدينة إلى آخرها . وفيه طبقات مفتحة إلى جهة المدينة يدخل منها الضوء ، وأسفل هذا السور مبنى بالحجارة ، وأعلاه بالآجر ، وأبراجه كثيرة متقاربة . »

وبخارج العاصمة حوض عظيم يشرب منه أهل المدينة ، وماؤه يجمع من ماء المطر ، وطوله نحو ميلين وعرضه نصف الطول . وعلى جانب الحوض أماكن لتزهات الأهالي . وهناك حوض آخر خاص للسلطان ، وعلى جوانبه مساكن أهل الطرب . ثم زار ابن بطوطة مسجد مدينة دهلي ، وهو من أعظم الآثار الإسلامية بها . وكان من قبل معبدًا وثنيًا حول إلى مسجد بعد انتشار الإسلام بالهند ، وحيطانه وسقفه من الحجارة البيضاء ، وعند الباب الشرق من أبواب المسجد صحن كبيران جدًّا من النحاس ، مطروحان بالأرض ، قد ألصقا بالحجارة ، ويطاء عليهما كل داخل إلى المسجد أو خارج منه . واسترعى نظر ابن بطوطة بهذا المسجد صومعة في الصحن الشمالى ، وكانت شديدة الارتفاع وصفها ابن بطوطة قائلاً : « صعدتها مرة فرأيت معظم دور المدينة ، وعايشت الأسوار على ارتفاعها وسموها منحنطة ، وظهر لى الناس فى أسفلها كأنهم الصبيان الصغار . »

مقابلة ابن بطوطة لسلطان دهلي

لاحظ ابن بطوطة استعداد مدينة دهلي لاستقبال السلطان عائداً من سفره ، فزينت القيلة ، ووضع عليها قباب من الخشب مكسوة بالحرير ، ومعهم بعض الراقصات . وزينت حيطان الشارع الذي يمر به السلطان من باب المدينة إلى باب القصر بثياب الحرير . ولم يلبث أن تقدم موكب السلطان يمشي أمامه المشاة من عبيده ، وخلفهم فيلة يرمى من فوقها بالدنانير والدراهم ، فيلتقطها الناس ، كما وزعت عليهم أوان مملوءة بشراب ماء الورد .

* * *

أخذ ابن بطوطة يستعد لمقابلة السلطان ويسأل عن التقاليد الواجب اتباعها في مثل هذه المناسبة . فعلم أنه لابد لكل قادم على هذا الملك أن يقدم هدية بين يديه حين المقابلة ، وبكافته السلطان عليها بأضعاف مضاعفة . وأدى ذلك إلى أن صار التجار ببلاد الهند يعطون لكل قادم على السلطان الآلاف من الدنانير دينا ويجهزونه بما يريد أن يهديه إليه ، أو يتصرف في المال بنفسه وفق ما يريد من شراء الهدايا . فإذا

تمت المقابلة ونال الزائر عطاء السلطان الوفير سدد ديونه واحتفظ
بالباقى لنفسه وكان فى ذلك ربح وفيرٌ للتجار . ولذا سلك
ابن بطوطة تلك السبيل منذ دخوله بلاد السند ، فاشترى من
تاجر ثلاثين فرساً وجملاً ، وكذلك بعض الممالك ليقدّمها
للسلطان .

وفى الفترة التى أعد فيها ابن بطوطة هداياه للسلطان ،
أخذ يسأل عن طباعه وأخلاقه ، وسيرته وطريقة حياته ليستطيع
أن يكسب رضاه بالابتعاد عما يكره ، وأداء ما يجب . وكان
السلطان الجالس على عرش دهلى إذ ذاك محمد شاه ، عرف
ابن بطوطة الشيء الكثير عن حياته ، فضلاً عن دراسته لهذا
السلطان بنفسه فيما بعد . فعلم ابن بطوطة أن هذا الملك أحب
الناس فى إسداء العطايا وإراقة الدماء كذلك ، إذ سرت عند
الناس حكاياته فى الكرم والشجاعة وحكاياته فى الفتك والبطش .
وهو يمتاز إلى جانب ذلك بإنعامه الجزيل على الغرباء ،
وتفضيلهم على أهل الهند وإيثارهم وإجزال الإحسان لهم ،
وهو يسبغ عليهم الإنعام ، ويوليهم أرفع المناصب ، وبلغ
من إحسانه إليهم أن سماهم الأعزة ، ومنع من أن يدعوا
بالغرباء ، لأن الإنسان إذا دعى غريباً « انكسر خاطره وتغير حاله » .
وفى رابع شوال حدد ميعاد مقابلة ابن بطوطة للسلطان فى

قصره . فخرج ابن بطوطة إلى القصر ومعه هديته . وحين بلغ باب القصر شاهد وفوداً كثيرة منتظرة ومعها هداياها . ثم بدأوا في الدخول على السلطان كل حسب مرتبته ، وأخيراً جاء دور ابن بطوطة . فدخل القصر ووصف ردهاته وطريقة جلوس السلطان لاستقبال الزائرين . فذكر ابن بطوطة أن للقصر أبواباً كثيرة ، أما الباب الأول عليه جملة من الرجال معهم الأبواق والطبول يضربونها إذا جاء أمير أو كبير مردين نغم جاء فلان ، جاء فلان . وكذلك أيضاً في البابين الثاني والثالث . وبين هذين البابين الأخيرين دهليز كبير به غرف للحفاظ وحرس المدخل . وعند الباب الثالث يجلس كتبة لا يسمحون لأحد باجتيازه إلا إذا كان يحمل موافقة السلطان . ويكتبون الساعة التي حضر فيها الزائر ومن معه .

وعندما دخل ابن بطوطة من الباب الثالث رأى ساحة فسيحة بها عمد كثيرة من الخشب ، لها سقف خشب كذلك ، منقوش أبداً نقش ، والسلطان جالس في صدر هذه القاعة ومعه حاشيته . « وجلوسه على مسطبة مفروشة بالياض ، فوقها مرتبة ، ويجعل خلف ظهره مخدة كبيرة . وعن يمينه متكأ ، وعن يساره مثل ذلك . وقعوده كجلوس الإنسان للتشهد في الصلاة ، وهو جلوس أهل الهند كلهم . فإذا جلس وقف

أمامه الوزير ، ووقف الكتاب خلف الوزير ، وخلفهم الحجاب . . . ثم يقف على رأس السلطان رجل بيده المذبة يشرد بها الذباب . »

وقد سبق ابن بطوطة في مقابلة السلطان عمال الدولة وشاهد عاداتهم في تقديم الهدايا له . إذ يتقدم العمال بعض الخدم حاملين الهدايا أمام الناس ، وبحيث يراها السلطان . ثم يتقدم كل موظف من السلطان ويصافحه ، وإن كان ممن يستحق التعظيم عانقه السلطان ، ويطلب بعض هديته ، ويقلبها بيده ويظهر استحسانه بها .

ولما جاء دور ابن بطوطة أخذ السلطان بيده وصافحه وأحسن له القول ، وقال له بالفارسية « حلت البركة ، قدومك مبارك ، أعطيك من الإنعام ما يسمع به أهل بلادك » . ثم سأله عن بلاده وأجابه ابن بطوطة عما سأل . وبذلك انتهى الاستقبال الأول الذي حظى به ابن بطوطة لدى سلطان دهلي .

ابن بطوطة يعين قاضياً على دهلي

بعد خروج ابن بطوطة من حضرة السلطان جاءه مندوب من قبل السلطان يسأله عن نوع العمل الذي يرغب الاشتغال به

في الهند . وكان مع ابن بطوطة في ذلك الوقت بعض الأشخاص الذين استقبلهم السلطان ، ومكثوا في انتظار إنعاماته . فقال لهم مبعوث السلطان : « يقول لكم السلطان من كان منكم يصلح للوزارة أو الكتابة أو الإمارة أو القضاء أو التدريس أو المشيخة أعطيته ذلك . » فسكت الجميع لأنهم كانوا يطمعون فقط في الحصول على عطاء السلطان والعودة إلى بلادهم . عندئذ خاطب مندوب السلطان ابن بطوطة باللغة العربية مستفهماً عن نوع العمل الذي يريده . فأجابه ابن بطوطة قائلاً : « أما الوزارة والكتابة فليست شغلي ، وأما القضاء والمشيخة ، فشغلي وشغل آبائي . »

ولما بلغ السلطان ما ذكره ابن بطوطة استدعاه لمقابلته . وبعد أن سلم ابن بطوطة على السلطان قال له كبير الأمراء : « قد جعلك السلطان قاضي دار الملك في دهلي ، وجعل مرتبك اثني عشر ألف دينار في السنة . . . وأمر لك باثني عشر ألفاً نقداً ، تأخذها من الخزانة غداً إن شاء الله ، وأعطاك فرساً بسرجه ورجامه » ثم أخذ بعد ذلك بيد ابن بطوطة وقدمه للسلطان ، الذي قال له « لا تحسب قضاء دهلي من أصغر الأشغال ، هو أكبر الأشغال عندنا . » وعين معه السلطان بعض المساعدين ، ثم تلى في القول مع ابن بطوطة ومن معه قائلاً : « أنتم

شرفتمونا بقدمكم ، فما نقدر على مكافأتكم ، فالكبير منكم
مقام والدي ، والكهل مقام أخى ، والصغير مقام ولدى ،
وما فى ملكى أعظم من مدينتى هذه أعطيكم إياها . « فشكره
ابن بطوطة وانصرف .

نساء الهندوس اللاتى يحرقن أنفسهن

لم تصرف حياة الوظيفة ابن بطوطة عن التجوال فى بلاد
الهند ومشاهدة عاداتها وتقاليدها ، وإرضاء ما طبعت عليه نفسه
من حب للاستطلاع . واسترعى نظره فى أثناء رحلاته بالهند
مشاهدة نساء الهندوس يحرقن أنفسهن بعد وفاة أزواجهن ،
فقال « رأيت الناس يهرعون من عسكرنا ، ومعهم بعض
أصحابنا ، فسألهم ما الخبر ، فأخبرونى أن كافراً من الهنود
مات ، وأججت النار لحرقه ، وامراته تحرق نفسها معه ،
ولما احترقا جاء أصحابى وأخبرونى أنها عانقت الميت حتى
احترقت معه .

على أن ابن بطوطة لم يلبث أن شاهد بنفسه أمثال هذه
الحوادث ، فقال « وبعد ذلك كنت فى تلك البلاد أرى المرأة
من كفار الهنود متزينة راكبة ، والناس يتبعونها من مسلم وكافر ،

والأطبال والأبواق بين يديها ، ومعها البراهمة ، وهم كبراء
الهنود ، وإذا كان ذلك ببلاد السلطان استأذنوا السلطان في
إحراقها ، فيأذن لهم ، فيحرقونها . ثم اتفق بعد مدة أنى كنت
بمدينة أكثر سكانها الكفار ، وأميرها مسلم ، وعلى مقربة منها
الكفار العصاة ، فقطعوا الطريق يوماً ، وخرج الأمير المسلم
لقتالهم ، وخرجت معه رعية من المسلمين والكفار ، وقع بينهم
قتال شديد ، مات فيه من رعية الكفار سبعة نفر ، وكان
لثلاث منهم ثلاث زوجات ، فاتفقن على إحراق أنفسهن .

وإحراق المرأة بعد زوجها عندهم أمر متروك إليها غير
واجب ، ولكن من أحرقت نفسها بعد زوجها أحرز أهل بيتها
شرفاً بذلك ، ونسبوا إلى الوفاء ، ومن لم تحرق نفسها لبست
خشن الثياب ، وأقامت عند أهلها بائسة ممتنة ، لعدم وفائها ،
ولكنها لا تكره على إحراق نفسها .

ولما تعاهدت النسوة الثلاث اللاتي ذكرناهن على إحراق
أنفسهن ، أقمن قبل ذلك ثلاثة أيام في غناء وطرب ، وأكل
وشرب ، كأنهن يودعن الدنيا ، ويأتى إليهن النساء من كل
جهة . وفي صبيحة اليوم الرابع أتيت كل واحدة منهن بفرس ،
فركبته وهي مترينة متعطرة ، وفي يدها جوزة نارجيل تلعب
بها ، وفي يسراها امرأة تنظر فيها وجهها ، والبراهمة يحفون بها ،

وأقاربها معها ، وبين يديها الأطبال والأبواق ، وكل إنسان من الكفار يقول لها : أبلغى السلام إلى أبي أو أخى أو أمى أو صاحبي ، وهى تقول : نعم وتضحك إليهم . وركبت مع أحماني لأرى كيفية صنعهن فى الاحتراق . فسرنا معهن نحو ثلاثة أميال ، وانتهينا إلى موضع مظلم كثير المياه والأشجار ، متكاثف الظلال ، وبين أشجاره أربع قباب ، فى كل قبة صنم من الحجارة ، وبين القباب صهريج ماء قد تكاثفت عليه الظلال ، وتراجمت الأشجار ، فلا تتخللها الشمس ، فكأن ذلك الموضع بقعة من بقع جهنم .

ولما وصلت النسوة إلى تلك القباب ، نزلن إلى الصهريج ، وانغمسن فيه ، وجردن ما عليهن من ثياب وحل فتصدقن به ، وأتيت كل واحدة منهن بثوب قطن نحشن غير مخيط ، فربط بعضه على وسطها ، وبعضه على رأسها وكتفها ، والنيران قد أضمرت على قرب من ذلك الصهريج فى موضع منخفض ، وصب عليها زيت زاد فى إشعالها . وهناك نحو خمسة عشر رجلا بأيديهم حزم من الحطب الرقيق ، ومعهم نحو عشرة بأيديهم خشب كبار ، وأهل الأطبال والأبواق وقوف ينتظرون مجيء المرأة ، وقد حجبت النار بمحففة بمسكها الرجال بأيديهم لئلا يدهشها النظر إليها ، فرأيت إحداهن لما

٩٣

وصلت إلى تلك الملهفة نزعتهما من أيدي الرجال بعنف وقالت لهم ، « أبالنار تخوفونني ؟ » ، أنا أعلم أنها نار محرقة » ، ثم جمعت يديها على رأسها ، احتراماً للنار ، ورمت بنفسها فيها . وعند ذلك ضربت الأطباء والأبواق ، ورى الرجال ما بأيديهم من الحطب عليها ، وجعل الآخرون تلك الحشب من فوقها لئلا تتحرك ، وارتفعت الأصوات وكثر الضجيج . ولما رأيت ذلك كدت أسقط من فرسي ، لولا أصحابي تداركوني بالماء ، فغسلوا وجهي وانصرفت »

نهر الكنج المقدس ورماد الجثث المحرقة

وأشاد ابن بطوطة بتقديس الهنود لنهر الكنج : « وهو الذي إليه يمجون ، وفيه يرى برماد الذين يحرقون ، وهم يقولون إنه من الجنة . وإذا أتى أحدهم ليغرق نفسه يقول لمن حضره ، لا تظنوا أنني أغرق نفسي لأجل شيء من أمور الدنيا ، أو لقلّة مال ، وإنما قصدى التقرب إلى « كساي » ، اسم الله عز وجل بلسانهم ، ثم يغرق نفسه ، فإذا مات ، أخرجه وأحرقه ، ورموا برماده في البحر المذكور . »

السحرة ببلاد الهند

وأعجب ابن بطوطة ببراعة السحرة الذين يدعون « الجوكية »
وتحدث عنهم قائلا : « وهؤلاء الطائفة تظهر منهم عجائب ،
منها أن أحدهم يقيم الأشهر لا يأكل ولا يشرب ، وكثير منهم
تحفر لهم حفر تحت الأرض ، وتبنى عليهم ، فلا يترك له
إلا موضع يدخل منه الهواء ، ويقيم بها الشهور . . . وهم
يُرَكَّبُونَ حبوباً ، يأكلون الحبة منها لأيام معلومة أو أشهر ،
فلا يحتاج في تلك المدة إلى طعام ولا شراب ، ويخبرون بأمور
مغبية . والسلطان يعظمهم ويجالسهم ، ومنهم من يقتصر في
أكله على البقل ، ومنهم من لا يأكل اللحم . . . والظاهر
من حالهم أنهم عودوا أنفسهم الرياضة ، ولا حاجة لهم في الدنيا
وزينتها . . . ويقولون للمرأة من السحرة « كفتار » .

وذكر ابن بطوطة بعض نوادر هؤلاء السحرة ، ومنها أن
امراة منهم أى كفتار ، اتهمت بقتل صبي بأن أكلت قلبه .
وأقن الناس بالصبي الميت والمرأة إلى منزل ابن بطوطة ، باعتباره
القاضى . لكنه أمرهم بالذهاب إلى نائب السلطان ليختبر
أمر المرأة بنفسه . فأمر نائب السلطان باختبارها بأن ملأوا أربع

جرات بالماء ، و بطوها بيديها ورجليها ، وطرحوها في النهر فلم تغرق ، فعلم أنها كفتار ، إذ لو لم تكن كفتار لغاصت في الماء . فأمر بإحراقها ، وجاء أهل البلد رجالا ونساء ، فأخذوا رمادها ، وزعموا أنه من تبخر به أمن في تلك السنة من سحر أبة كفتار .

وكذلك وصف ابن بطوطة حفلا عرض فيه بعض أولئك السحرة أعمالهم ، فقال : « بعث إلى السلطان يوماً ، وأنا عنده بالخرصة ، فدخلت عليه ، وهو في خلوة ، وعنده بعض خواصه ، ورجلان من هؤلاء الجوكية . وهم يلتحفون بالملاحف ، ويغطون رؤوسهم ، لأنهم ينتفونها ، كما يتف الناس آباطهم . فأمرني بالجلوس ، فجلست ، فقال لهما ، « إن هذا العزيز من بلاد بعيدة ، فأرياه ما لم يره ؟ » ، فقالا ، نعم . فتريع أحدهما ثم ارتفع عن الأرض حتى صار في الهواء فوقنا مترجاً ، فعجبت منه ، وأدركني الوهم ، فسقطت إلى الأرض ، فأمر السلطان أن أسقى دواء عنده ، فأفقت وقعدت ، وهو على حاله مترج . فأخذ صاحبه نعلا من شكاة كانت معه ، فضرب بها الأرض كالمتاعظ ، فصعدت إلى أن علت فوق عنق المترج ، وجعلت تضرب في عنقه ، وهو ينزل قليلا قليلا ، حتى جلس معنا . »

على أن ابن بطوطة أبقى البقاء في الهند كثيراً بعد مشاهداته
السالفة ، ولا سيما أن العلاقات ساءت بينه وبين سلطان دهلي .
فقرر مغادرة البلاد ، وقصد زيارة جزر « الملديف » ، القريبة
من الهند ، لما لها من شهرة عالية .

جزر الهدوء والسلام جزائر ذبية المهل

سمع ابن بطوطة أن بالقرب منه جزراً تسمى جزائر « ذبية المهل » ، وهى جزائر الملدیف الحالية ، تشتهر بالجمال الطبيعى الساحر والهدوء الشامل والنساء الجميلات . فصمم على زيارتها ولا سيما أنها لا تبعد عن ميناء قاليقوت كثيراً . وتصادف أنه وجد بهذا الميناء مركباً متجهاً إلى عاصمة هذه الجزائر ، فاتفق مع صاحبه على حمله إلى هذه الجزيرة . ولما اقتربت السفينة من هذه الجزر استولى العجب على ابن بطوطة ، وذكر أنها إحدى عجائب الدنيا ، فجموعة هذه الجزر « مستديرة كالحلقة ، لها مدخل كالباب ، لا تدخل المراكب إلا منه . وإذا وصل المركب إلى المدخل فلا بد له من دليل من أهلها يسير به إلى سائر الجزائر ، وهى من التقارب بحيث تظهر رؤوس النخل التى بإحداها عند الخروج من الأخرى ، فإن أخطأ المركب فى سيره لم يمكنه دخولها وحمله الريح إلى خارجها . »

شجرة النارجيل

ولم يكن هذا الشجر الكثير الذى تكتظ به جزر ذببة المهل غير شجر النارجيل ، وأسهب ابن بطوطة فى وصفه لما له من أهمية قصوى فى الحياة الاقتصادية لهذه الجزر . فذكر أن هذا الشجر يشبه النخل لا فرق بينهما ، إلا أن هذه تثمر جوزاً والنخل تثمر بلحاً . وجوز النارجيل يشبه رأس ابن آدم ، لأن فيه شبه العينين والفم ، وعليها شبه الشعر . وهم يصنعون منه حبالاً يخيطنون بها المراكب عوضاً عن المسامير من الحديد ويصنع هذه الحبال نساء هذه الجزر ، وتخاط بها مراكب الهند . وذلك لأن البحر ، فى تلك المناطق كثير الحجارة ، فإن كان المركب مسمراً بمسامير الحديد وصلدم بالحجارة انكسر ، وإذا كان مخيطةً بالحبال ساعدت الرطوبة على تقليل حدة الاصطدام .

وثمار هذا الشجر يكون أخضر فى أول الأمر ، وإذا قطع بالسكين منه قطعة وفتح رأس الجوزة سال منها ماء شديد الحلاوة . أما ما فى داخل الجوزة فطعمه كطعم البيضة إذا شويت ولم يتم نضجها تماماً ، وقد أحب ابن بطوطة هذا النوع من الطعام وأقبل عليه طيلة العام ونصف العام الذى قضاه فى هذه الجزر .

وإلى جانب ذلك كان يصنع من هذا الجوز الزيت والحليب والعسل . فأما كيفية صناعة العسل فهو أن يصعد عمال مخصوصون إلى النخلة صباحاً ومساءً ويأخذون ماء الجوز في قدور خاصة ثم يغلي هذا الماء حتى يصير عسلاً . أما صنع الحليب فيقوم به النساء اللاتي يجلسن فوق كراسي خاصة ، ويبد كل منهم عصاً في أحد طرفيها حديدة ، فيفتحون في الجوزة مقدار ما تدخل تلك الحديدة ، ويجرشون ما في باطن الجوزة ، وكل ما ينزل منها يجمع في صحفة حتى لا يبقى في داخل الجوزة شيء ، ثم يخلط بالماء ويقلب حتى يصير كلون الحليب بياضاً وطعماً ، أما الزيت فيضع من الجوز بعد تمام نضجه ، إذ يزيلون قشره ، ويقطعون قطعاً ، ويجعل في الشمس ، فإذا ذبل طبخ في القدور ، واستخرج زيتة الذي يستخدم في الطبخ .

إكرام جديد

وصلت السفينة التي كانت تقل ابن بطوطة إلى إحدى جزر « ذبية المهل » وكانت تدعى كنلوس . ولاحظ ابن بطوطة أن سكانها يدينونه بالدين الإسلامي شأن سائر الجزر الأخرى ،

وذكر أن الإسلام انتشر فيها على يد رجل مغربي وصل إليها .
وقد لقي ابن بطوطة من فقهاء هذه الجزيرة كل كرم وحفاوة .
ثم تابع ابن بطوطة رحلته حتى بلغ جزيرة المهل عاصمة
الجزر بعد عشرة أيام من وصوله جزيرة كنلوس . وكان قد
أخفى شخصيته ، وأنه من الفقهاء ومن سبق له الاشتغال بالقضاء
لدى سلطان دهلي ، غير أن بعض الفضوليين كتبوا إلى السلطات
في هذه الجزيرة بحقيقة أمره . فما إن وطئ أرض جزيرة المهل
حتى بادرت السلطات إلى الاحتفاء به . وكان يتصرف في
شئون هذه الجزر امرأة تدعى خديجة آل إليها السلطان بعد أن
انقرض جميع الذكور من سلالة بيتها . وكانت متزوجة من
أحد وزراء دولتها وإليه آلت مقاليد الأمور .

وكان قصر السلطنة خديجة معداً لاستقبال ابن بطوطة ،
لأن السلطات رأت أن تستخدمه في تولي منصب القضاء .
وجهد ابن بطوطة في إصلاح بعض العادات المستهجنة في
هذه الجزر ، وكان أهم هذه الأعمال القضاء على بقاء المرأة
المطلقة في بيت زوجها السابق حتى تتزوج غيره . وقد كان
اشتغال ابن بطوطة بالقضاء عاملاً حفزه على دراسة النواحي
الاجتماعية في هذه الجزر ، حتى يستطيع الفصل فيما يعرض له
من شئون . وكان أهم شيء استرعى نظره هو طبيعة النساء في

هذه الجزر ، وعلاقتهن بالرجال ، وأن الحياة بينهم تسودها
المودة والهدوء والسلام .

الطمأنينة والنساء

أعجب ابن بطوطة بما يسود أهل هذه الجزر من هدوء ،
وما هم عليه من صلاح وتقى ، إذ هم آمنون من شر إغارات
القراصنة ، ولا يجرؤ أحد على إيقاع الأذى بهم ، لما شاع
عنهم من أنهم أناس يتقبل الله دعاءهم وينتقم لهم من المعتدين
« فلا تطرقهم لصوص الهند ، ولا تدعهم ، لأنهم جربوا أن
من أخذ منهم شيئاً أصابته مصيبة عاجلة ، وإذا جاءت سفن
العدو إلى ناحيتهم لم يعرضوا لأحد منهم بسوء ، وإن أخذ أحد
منهم شيئاً ، ولو ليمونة ، عاقبه أميرهم ، وضربه الضرب المبرح
خوفاً من عاقبة ذلك ، ولولا هذا لكانوا أهون الناس على قاصدهم
بالقتال ، لضعف بنيتهم . »

وانصرف سكان هذه الجزر إلى العناية بأنفسهم ومظهرهم ،
فأكثرهم يغتسل مرتين في اليوم تنظفاً من شدة الحر وكثرة
العرق . ويكثر من الأدهان العطرية ، فكان من عادتهم كل
صباح أن تأتى المرأة إلى زوجها أو ابنها ومعها المكحلة وماء الورد

والعطور . فيكحل الرجل عينيه ، ويمسح نفسه بماء الورد والعطور ، مما جعل بشرتهم مصقولة . ولباسهم القوط ، فهم يشدون القوطة منها على أوساطهم بدلا من السراويل ، ويضعون على ظهورهم شيئا أشبه بالحرام ، وبعضهم يجعل على رأسه عمامة أو منديلا صغيراً .

مظهر النساء

غير أن حالة النساء في هذه الجزر استرعت نظر ابن بطوطة أكثر من الرجال . إذ شاهدين يسرن دون غطاء على رؤوسهن ، ويمشطن شعورهن ويجمعنهما إلى جهة واحدة . ولا يلبسن إلا قوطة واحدة تسترهن من السرة إلى أسفل ، أما سائر أجسادهن فتبقى مكشوفة ، ثم يسرن على هذا النحو في الأسواق وغيرها . وقد جهد ابن بطوطة فيما بعد حين ولي منصب القضاء في هذه الجزر أن يقضى على هذا العادة المتفشية بين النساء ، وأمرهن بارتداء ملابس كاملة ، ولكن ذهبت جهوده أدراج الرياح .

ولم جانب ذلك لاحظ ابن بطوطة مغالاة النساء في استعمال الخلى ، فكان يكثرن من لبس الأساور حتى إن

١٠٣

المرأة منهم تجعل في ذراعيها من الأساور ما يملأ بين الكوع والمرفق . وكانت معظم هذه الأساور من الفضة ، إذ اقتصرت نساء السلطان وأقاربه باستخدام الأساور من الذهب . وفضلاً عن ذلك كن يضعن الخلائيل في أرجلهن وقلائد الذهب على صدورهن .

وانفردت عامة النسوة في هذه الجزر بتقليد كان موضع دهشة ابن بطوطة ، فكان يؤجرن أنفسهن للخدمة بمنزل الأثرياء مقابل عدد معين من الدنانير ، وعلى مستأجرهن الإنفاق عليهن ، دون أن تجد النسوة عيباً في ذلك . فكان يوجد في دار الرجل الغني عشرة أو عشرون امرأة ، يقمن بأعمال الخدمة ، وكل ما تكسره من الأواني يحسب عليها قيمته . وإذا أرادت إحداهن الخروج من دار إلى دار أخرى ، أعطاهن رب البيت الذي تركت خدمته ما تستحقه من الدنانير ، وتدعها عند صاحب المنزل الجديد الذي التحقت بخدمته .

الزواج بالنساء

وكان الزواج بأولئك النسوة من أهم الملاحظات التي أسهب ابن بطوطة في الحديث عنها . فكان الزواج بهن سهلاً ميسوراً لقلة الصداق ، فضلاً عما اشتهر به أولئك النساء من حسن

العشرة . فإذا قدمت مركب إلى هذه الجزر تزوج ركاها
بنساء الجزيرة التي يلقون عندها مرساهم .

وكان الزواج يتم في أسرع وقت ، إذ كان أهل الجزيرة
يخرجون إلى الشاطئ لاستقبال السفينة ويعرضون خدماتهم على
ركابها . ثم يعودون إلى منازلهم حاملين أمتعة التزلاء ، الذين
قبلوا التزول عندهم . وبعد ذلك يساعدون الركاب على الزواج
بمن يشاءون من النساء ، أى أن ذلك عبارة عن نوع من زواج
المتعة . وقال ابن بطوطة عن هذا الزواج وما به من بهجة :
« ولم أر في الدنيا أحسن معاشرة من أولئك النساء ، ولا تكل
المرأة عندهم خدمة زوجها إلى سواها ، بل هي تأتيه بالطعام ،
وترفعه من بين يده ، وتغسل يده ، وتأتيه بالماء للوضوء ،
وتضم رجله عند النوم . ومن عوائدهن أن لا تأكل المرأة مع
زوجها ، ولا يعلم الرجل ما تأكله المرأة . ولقد تزوجت بها
نسوة فأكل معي بعضهن بعد محاولة ، وبعضهن لم تأكل معي ،
ولا استطعت أن أراها تأكل ، ولا نفعتني حيلة في ذلك . »

ولم يكن نساء هذه الجزر يخرجن مع أزواجهن حين يأتي
ميعاد عودتهم إلى بلادهم ، إذ كانت عادة أولئك النساء
ألا يغادرن بلادهن أبداً ، ويستلزم ذلك طلاقهن ، راضين
في مقابل ذلك بالقليل من النفقة .

زواج ابن بطوطة

وكانت قصة زواج ابن بطوطة في أثناء إقامته بهذه الجزر من أطرف الأحداث التي تصور الحياة الاجتماعية بها تصويراً شائقاً . فنذ حط رحاله في جزيرة ذبية المهل وهو موضع حفاوة أحد وزرائها ويدعى سليمان . إذ منحه هذا الوزير بستاناً ، وبعث له في اليوم التالي لهذه المنحة بجارية اسمها « قل ستان » أى « زهرة البستان » ، وكانت تعرف اللسان الفارسي ، مما أعجب ابن بطوطة كثيراً ، لأنه كان يجيد هذه اللغة ، ويفضل التفاهم بها على لغة أهل هذه الجزر المحلية . ولم يقف كرم الوزير عند هذا الحد ، وإنما بعث إليه حلياً وثياباً فاخرة .

ولكن ابن بطوطة سرعان ما فهم حقيقة أمر هذا الكرم والإغداق . إذ بعث إليه الوزير رسولا يعرض عليه أن يزوجه ابنته . وقد أبى ابن بطوطة أن يتزوج من ابنة الوزير ، وتطير من ذلك ، حيث توفي رجلان تقدما للزواج بها قبل ليلة الزفاف . وأخذ الاضطراب والقلق يعملان في نفس ابن بطوطة حتى أصابته الحمى ، وعزم على الرحيل . ولما بلغ الوزير ذلك

بعث يطلب من ابن بطوطة رد جميع الهدايا والمال الذي حصل عليه منه . وبعث إليه رسولا ينصحه سراً بالإقامة وعدم مغادرة الجزيرة . وأدرك ابن بطوطة ألا مناص من البقاء وفضل أن يمحكث بالجزيرة برغبته حتى لا يضطر إلى الإقامة بها مكرهاً ، وقبل الزواج من ابنة الوزير على مضض .

وأخذ الوزير بعد ذلك يستعد للاحتفال بعقد القران ، ونصب سرداقاً فخماً يوم عقد القران . ولكن حدث أمر غريب بعد أن اجتمع سائر المدعوين ، إذ لم يحضر الوزير إلى السرادق ، وطال الانتظار بالحاضرين . وهنا همس أحد خاصة الوزير في أذن ابن بطوطة ذاكرًا له أن ابنة الوزير رفضت الزواج منه ، وأن الوزير يعرض عليه إنقاذاً للموقف أن يتزوج بامرأة جميلة من نساء القصر . فقبل ابن بطوطة ، ولا سيما أنه كان كارهاً بدوره الزواج بابنة الوزير وقد دفع الوزير الصداق وتم عقد القران . وذكر ابن بطوطة رأيه في هذه الزيجة المفاجئة قائلاً : « ورفعت (أى المرأة التى قبل الزواج بها) إلى بعد أيام ، فكانت من خيار النساء . وبلغ حسن معاشرتها أنها كانت إذا تزوجت عليها تطيبنى وتبخر أثوابى وهى ضاحكة لا يظهر عليها تغير . »

دخول ابن بطوطة في خدمة الحكومة

بعد أن تم زواج ابن بطوطة بهذه المرأة السالفة حمله الوزير على تقلد منصب القضاء في جزيرة ذبية المهل . وكان السبب في ذلك رغبة السلطات في الاستفادة من علم ابن بطوطة ، وتفقهه في الدين . إذ حدث أن اعترض ابن بطوطة على القاضي بهذه الجزيرة لأخذه العشر من قيمة التراكات التي يقسمها على أصحابها ، وذكر أن الشرع يبيح له فقط أخذ أجر معلوم بالاتفاق مع الورثة نظير تأديته مهمته . ولذا عزلت السلطات هذا القاضي ، وعينت مكانه ابن بطوطة .

وسجل ابن بطوطة ما قام به من أعمال أثناء توليه منصب القضاء قائلا : « أول ما غيرت من عوائد السوء مكث المطلقات في ديار المطلقين ، وكانت إحداهن لا تزال في دار المطلق حتى تتزوج غيره ، فحسنت علة ذلك ، وأتى إلى بنحو خمسة وعشرين رجلا ممن فعل ذلك ، فضربتهم وشهرتهم بالأسواق ، وأخرجت النساء عنهم . ثم اشتدت في إقامة الضلوات ، وأمرت الرجال بالمبادرة إلى الأزقة والأسواق لإثر صلاة الجمعة ، فن وجدوه لم يصل ضربته وشهرته . وألزمت الأئمة والمؤذنين أصحاب المرتبات المواظبة على ما هم بسبيله ، وكتبت إلى جميع الجزائر

بنحو ذلك . وجهدت أن أكسو النساء فلم أقدر على ذلك . «
 وكان منصب القاضي يتيح لابن بطوطة إحداث ما يشاء
 من إصلاحات اجتماعية ، « إذ أمره نافذ كأمر السلطان وأشد ،
 ويجلس على بساط في الدار ، وله ثلاثة جزائر يأخذ مجباها
 لنفسه . » ولذا دأب ابن بطوطة على الاشتراك في سائر مظاهر
 الحياة الاجتماعية بهذه الجزر والعمل على إزالة ما بها من شوائب ،
 وإقرار ما بها من محاسن . وكان من الأمور التي أقرها وأعجب
 بها الاحتفال بالأعياد .

شاهد ابن بطوطة اختفال سكان جزيرة ذبية المهل بأحد
 أعياد الفطر ، واشترك رجال الحكومة معهم . ففي صبيحة يوم
 العيد خرج الوزير من داره إلى المصلى ، وجهد كل من الأمراء
 الذين تقع منازلهم على طريق الوزير في تزيين دورهم . فغرسوا
 أمام منازلهم أشجار النارجيل الصغيرة ، ومدوا من شجرة إلى
 أخرى شرائط ، علقوا فيها الجوز الأخضر . ووقف صاحب
 كل دار أمام بابه ، وحين يمر الوزير يرى على قدميه ثوباً
 من الحرير أو القطن ، فيأخذها عبيد الوزير .

وكان موكب الوزير يسير وسط هذه المظاهر الرائعة ،
 فيتقدم الوزير الموكب ماشياً على قدميه ، وعليه فرجية مصرية ،
 وجميع الناس سواه حفاة ، والأبواق والأطبال بين يديه ،

والعساكر أمامه وخلفه ، وجميعهم يكبرون ، وبعد الصلاة عاد
الموكب مرة أخرى إلى دار الوزير وانصرف سائر الناس .

مغادرة جزائر المهل

كان اشتغال ابن بطوطة بالقضاء سبباً في إثارة كراهية
كثير من الناس له ، وأخذت عوامل الدس والمؤامرات تعمل
عملها لإفساد العلاقات بينه وبين السلطات الرئيسية بالجزيرة .
ونجحت الدسائس في إيقاع الوحشة والفرقة بين ابن بطوطة
وأحد الوزراء ويدعى عبد الله بن محمد الحضرمي ، وجاءت
شدة الأحكام القضائية التي أصدرها ابن بطوطة وقسوتها عاملاً
مباشراً في إيجاد صراع سافر بينهما .

بدأ ذلك العداء حين اشتكى بعض الناس من الوزير ،
وأنه مدين لهم ببعض الأموال ، ويطلبون استردادها . إذ نعد
ابن بطوطة لإهانة الوزير الذي دأب على إغفال أمره وتأليب
الناس عليه ، وروى خطته قائلاً : « وكانت عادتي إذا
بعثت عن خصم من الخصوم أبعث له قطعة كاغد مكتوبة ،
فعندما يقف عليها يبادر إلى مجلس الحكم الشرعي وإلا عاقبته .
فبعثت إليه على العادة ، فأغضبه ذلك ، وحقدوا لي ، وأضمر
عدواني ، وוכל من يتكلم عنه ، وبلغني عنه كلام قبيح . »

وتابع ابن بطوطة بعد ذلك امتحان شأن الوزير وتلمس زلاته . فأمر الناس ألا يقدموا له التحية ، وإلا وقع عليهم العقاب . ثم انتهز فرصة رجاء من الوزير للتدخل في قضية من القضايا وحط من قدر الوزير علانية . إذ قبض على غلام بتهمة ارتكاب جريمة زنا مع إحدى نساء القصر ، وأرسل الوزير يطلب من ابن بطوطة إطلاق سراح الشاب . فانتهر ابن بطوطة ذلك وأمر بمضاعفة عقاب الشاب ، وضربه بقضبان الخيزران التي كانت أشد وقعاً من السياط ، وأمر أن يطاف به في أنحاء الجزيرة للتشهير به ، ووضع حبل في عنقه .

ولما علم الوزير بذلك استشاط غضباً ، وجمع الوزراء الأخر والعسكر ، وبعث يستدعي ابن بطوطة . فجاء ابن بطوطة إلى هذا المجلس ولم يقدم التحية للوزير وقال للحاضرين « اشهدوا علي أني قد عزلت نفسي عن القضاء لعجزى عنه . » ثم أغلظ ابن بطوطة في القول للوزير ، وأعلن أنه سيغادر البلاد .

طلق ابن بطوطة نسائه ، بعد أن طلق الحياة العامة بهذه الجزر ، وعول على متابعة الارتحال والتجوال ، وقد وفق في الحصول على مركب كان متجهاً إلى جزيرة سيلان . فأقبل على القيام بهذه الرحلة الجديدة ، ومشاهدة هذه الجزيرة التي ارتبط بها أقدم القصص عن آدم أب البشر .

مهبط آدم

اقتربت السفينة التي أقلت ابن بطوطة من جزيرة سيلان ،
وطلع عليهم جبلها من بعيد شاهقاً في الفضاء كأنه عمود دخان .
وما أن ألفت السفينة مرساها حتى توجه ابن بطوطة إلى سلطان
الجزيرة يلتمس منه الإذن بمشاهدة آثار آدم ، وإشباع غريزة
حب الاستطلاع عنده .

وروى ابن بطوطة ما دار بينه وبين سلطان جزيرة سيلان
وذهابه لمشاهدة آثارها قائلاً : « فقلت للسلطان : ليس مرادى
منذ وصلت هذه الجزيرة إلا زيارة القدم الكريمة ، قدم آدم
عليه السلام ، وهم يسمونه (بابا) ، ويسمون حواء (ماما) .
فقال : هذا هين ، نبعث معك من يوصلك . . . وبعث معي
أربعة من الجوكية (رجال يحترفون الشعوذة) ، الذين عادتهم
السفر كل عام إلى زيارة القدم ، وثلاثة من البراهمة ، وعشرة
من سائر أصحابه ، وخمسة عشر رجلاً يحملون الزاد ، وأما الماء
فهو بتلك الطريق كثير . »

« ولا صعدنا جبل سرنديب كنا نرى السحاب أسفل منا ،
 قد حال بيننا وبين رؤية أسفله ، وفيه كثير من الأشجار
 التي لا يسقط لها ورق ، والأزاهير الملونة والورد الأحمر . . .
 وفي الجبل طريقان إلى القدم ، أحدهما يعرف بطريق (بابا) ،
 والآخر بطريق (ماما) ، يعنون آدم وحواء عليهما السلام .
 فأما طريق ماما فطريق سهل ، عليه يرجع الزوار إذا رجعوا ،
 ومن مضى عليه فهو عندهم كمن لم يزر ، وأما طريق بابا
 فصعب وعر المرتقى ، . . . ونحت الأولون في الجبل شبه درج
 يصعد عليها ، وغرزوا فيها أوتاد الحديد ، وعلقوا فيها السلاسل
 ليتمسك بها من يصعده ، وهي عشر سلاسل ، . . . وفي أعلى
 الجبل يوجد القدم .

وأثر القدم الكريمة (قدم آدم) في صخرة سوداء مرتفعة ،
 بموضع فسيح ، وقد غاصت القدم الكريمة في الصخرة حتى
 عاد موضعها منخفضاً ، وطولها أحد عشر شبراً . وأتى إليها أهل
 الصين قديماً ، فقطعوا من الصخرة موضع الإبهام وما يليه ،
 وجعلوه في كنيسة بمدينة الزيتون يقصدونها من أقصى البلاد .
 وفي الصخرة حيث القدم تسع حفر منحوتة ، يجعل الزوار
 فيها الذهب والياقوت والجواهر ، فإذا وصل الفقراء إليها تسابقوا
 في أخذها .

وبعد أن أتم ابن بطوطة مشاهدة الآثار عاد بطريق ماما ،
وعول على مشاهدة بعض الآثار الأخرى القرية . فرَّ بمدينة
دِينَوْرَ التي بها صنم يعرف باسم المدينة ، موضوع « في كنيسة
عظيمة فيها نحو الألف من البراهمة والجوكية ، ونحو خمسمائة
من النساء بنات الهنود ، ويغنين كل ليلة عند الصنم ويرقصن...
والصنم من ذهب على قدر الآدمي ، وفي موضع العينين منه
ياقوتتان عظيمتان . »

القروء

شاهد ابن بطوطة في أثناء طوافه بالمدن الهامة يجبل
سرنديب كثرة القروء ، وذكر أنها سود الألوان ، ولذكورها
الحى كما هي للآدميين . وعلم من دراسة أحوالها أن لهذه
القروء مقدماً تتبعه كأنه سلطان ، يشد على رأسه عصابة من
أوراق الأشجار ، ويتوكأ على عصا ، ويكون عن يمينه
ويساره أربعة من القروء لها عصى بأيديها ، وأنه إذا جلس
القرء الرئيس تقف القروء الأربعة على رأسه ، وتأتى أثناءه
وأولاده فتتعد بين يديه كل يوم ، وتأتى القروء فتتعد على بعد
منه . ثم يكلمها أحد القروء الأربعة ، فتتصرف القروء كلها ،
ثم يأتى كل قرء منها بموزة أو ليمونة أو شبه ذلك ، فيأكل القرء

الرئيس وأولاده والقروء الأربعة . وكذلك علم ابن بطوطة أن لهذه القروء نظاماً تأديبياً ، إذ تتولى القروء الأربعة ضرب بعض القروء المتمردة وتنف وبرها .

الياقوت

واسترعى نظر ابن بطوطة في جزيرة سيلان كذلك كثرة أحجار الياقوت . وذكر أنه يستخرج من أرض الجزيرة ، إذ تحفر الأرض ، ويوجد تحتها أحجار بيضاء مشعبة ، يتكون الياقوت في جوفها . فتقطع هذه الأحجار البيضاء وتعطى لعمال مخصوصين يتولون شقها وإخراج أحجار الياقوت منها ، وهو مختلف الألوان ، منها الأصفر والأزرق .

ويتحلى جميع نساء سيلان بقلائد من الياقوت الملون ، ويجعلنه في أيديهن كذلك وأرجلهن عوضاً عن الأساور والخلائيل . ويحلى جوارى السلطان رؤوسهن بشبكة من الياقوت وكان لسلطان الجزيرة فيل أبيض يستخدمه في تنقلاته الرسمية ، ويحلى جبهة هذا الفيل في هذه المناسبات بسبعة أحجار من الياقوت ، كل حجر منها في حجم بيضة الدجاجة . وشاهد ابن بطوطة كذلك أحجاراً من الياقوت في حجم الكف ، موضوعة في خزائن السلطان .

وبعد أن أتم ابن بطوطة مشاهداته في جزيرة سيلان أخذ يطوف بالجزر والأراضي المحيطة بها ، وقد أصابه في تلك الأثناء مرض الحمى ، وعبر عن مشاعره وكيفية معالجته لهذا المرض قائلاً : « ثم أصابني الحمى القاتلة ، فظننت أنها القاضية ، وألهمني الله التمر الهندي ، وهو هنالك كثير ، فأخذت نحو رطل منه وجعلته في الماء ، ثم شربته ، فأسهلني ثلاثة أيام وعافاني الله من مرضي . »

ولم تقف المصاعب التي لاقاها ابن بطوطة حيثئذ على إصابته بالحمى فحسب ، وإنما تعرض لإغارات القراصنة كذلك في أثناء تجواله بجزراً . إذ خرج على السفينة التي كانت تقله اثنا عشر مركباً من مراكب القراصنة ، وسلبوا جميع ما بالسفينة . ونال ابن بطوطة من الخسائر الشيء الكثير . إذ روى أنهم « أخذوا جميع ما عندي مما كنت أدخره للشدائد ، وأخذوا الجواهر والياقيات التي أعطانيها ملك سيلان ، وأخذوا ثيابي التي كانت عندي . . . ولم يتركوا لي إلا السراويل . »

وقد انتهت متاعب هذا الشطر من رحلة ابن بطوطة بوصوله جزيرة جاوه ، حيث شاهد من مفاتها الطبيعية ومنتجاتها النباتية ما أنساه الصعاب التي قاسى منها الشيء الكثير . ومن جاوة رحل ابن بطوطة إلى بلاد الصين ، آخر بلاد العالم الإسلامي في الشرق .

١٢

بلاد الشمس المشرقة أرض الصين

اطلبوا العلم ولو في الصين

كان ابن بطوطة يكرر ما روى عن الرسول الكريم اطلبوا العلم ولو في الصين ، وهو في طريقه إلى هذه البلاد . ولم يراوده خوف أو رهبة كلما اقتربت السفينة من شواطئ الصين ، فقد تذكر ترحيب أهالي الصين بالمسلمين ، ولا سيما التجار منهم الذين كانوا أول من وصلوهم بالدين الإسلامي ودولته .

وقد وفد أولئك التجار المسلمون على الصين في عهد دولة تانج التي حكمت الصين من ٦١٨ إلى ٩٠٧ م . وتناقل أهل الصين عن أولئك التجار أنهم يعبدون الله ، وليس لهم في معابدهم تماثيل ولا صنم ولا صورة ، وكانوا لا يأكلون لحم الخنزير ولا يشربون الخمر ، ويعتبرون الذبائح التي لا يذبحونها بأنفسهم محرمة عليهم . وقد حصل أولئك القوم من السلطان على إذن بالإقامة في ميناء كانتون وبنوا لهم دوراً جميلة تختلف عن مباني أهل الصين .

وسرعان ما أصبح أعضاء الجالية الإسلامية أغنى الناس في الصين ، وكثر الوافدون عليهم من بنى دينهم ، واستقر آخرون منهم في ميناء خانفو جنوب مدينة شنغهاي الحالية . وحرصت السلطات الصينية على منح المسلمين بها امتيازات كثيرة لما لهم من أثر كبير في اقتصاديات البلاد . فكان لهم حق اتخاذ قاض مسلم من بينهم ، يحكم في المشاكل التي يتعرضون لها ، ويؤمهم في الصلاة . وكذلك حصلوا على جوازات تبيع لهم تبادل التجارة مع أهل الصين داخل البلاد .

وتابع التجار المسلمون نشاطهم حتى وصلوا إلى كوريا ، وكان لهم نشاط واسع ، وتدخلوا في الشؤون السياسية لهذه البلاد . وساعد على هذا التدخل السياسى اتصال حكام الصين بخلفاء الدولة الإسلامية ، والاستعانة بهم في التغلب على مشاكلهم الداخلية . فقد استنجد حاكم الصين سوتسنج سنة ٧٥٦ م بالخليفة المنصور العباسى للدفاع عن عرشه ضد بعض الثوار . فأمدته الخليفة بفرقة من الجند الإسلامى ، أثرت البقاء في الصين بعد انتهاء مهمتها .

وظلت أحوال الصين تزداد قوة باتصالها بالمسلمين حتى القرن الثالث عشر الميلادى ، قبيل زيارة ابن بطوطة لها بزمان قصير . إذ دخل المغول بلاد الصين ، وتحولوا إلى الدين

الإسلامي ، وفتحوا بذلك الطريق أمام المسلمين من سائر الأجناس للدخول إلى الصين . فاستقر عدد كبير من المسلمين في مدن الصين الهامة بشكل نهائي ، وغدا لهم كيانهم الخاص . وجاءت زيارة ابن بطوطة إلى الصين وتجوله في مدنها سجلا حافلا عن حياة المسلمين ، ونشاطهم في هذه المرحلة المبكرة من اتصالهم بالشرق الأقصى .

الجمارك وعمالها

نزل ابن بطوطة في ميناء الزيتون ، « وهذه المدينة ليس بها زيتون ، ولكنه اسم وضع عليها . ومرساها من أعظم مراسي الدنيا ، أو هو أعظمها . » وبها نظام دقيق لاستقبال السفن التجارية وتفتيش متاجرها . وكانت العادة المتبعة في هذا الميناء تسجيل السفن الواردة إليه والصادرة عنه ، فإذا أراد مركب صيني مغادرة الميناء صعد إليه صاحب البحر وكتابه ، وكتبوا من يسافر فيه من الخدام والبحارة ، وحينئذ يباح للسفينة السفر . فإذا عادت إلى الميناء صعد عمال الجمارك مرة أخرى إلى السفينة وقابلوا ما كتبوه أولا بأشخاص الركاب على المركب . فإن فقدوا أحداً من عمال السفينة وبحارتها طلبوا من رئيس المركب أن يأتي بالدليل على غياب ذلك الشخص ، سواء بالموت أو الفرار .

وبعد أن يفرغ عمال الجمارك من التحقيق من شخصية البحارة ، يكلفون صاحب المركب أن يملئ عليهم أنواع السلع التي استوردها ، ثم تنزل البضائع من المركب ، وإن عثروا على سلعة قد كنتم عنهم صادروا جميع البضائع . وكان هذا النظام القاسى الدقيق سبباً فى ازدهار الأحوال التجارية ببلاد الصين ، وحرص التجار على مراعاة قوانين البلاد التجارية .

وكان للتجار المسلمين نظم خاصة من حيث علاقتهم بعمال الجمارك وطريقة معيشتهم بالصين . فكان يخير التاجر حين وصوله الميناء أن يقيم عند تاجر من المسلمين الصينيين أو فى فندق . فإن أحب النزول عند تاجر معين أحصى عمال الجمارك مال التاجر وبضاعته ، وأخذوا إقراراً من التاجر المستوطن بتسلمه هذه الأموال والإنفاق منها على ضيفه التاجر بالمعروف ، وإذا أراد التاجر السفر دفع له مضيفه ما أخذه من مال . أما إذا أراد التاجر النزول بفندق سلم ماله لصاحب الفندق لينفق عليه منه .

وكانت الإقامة بالفندق تكفل الراحة للتاجر ، فإذا أراد التسرى اشترى له صاحب الفندق جارية ، وأسكنه بجناح خاص فى الفندق ، وأنفق عليهما . والجواري رخيصات ببلاد الصين ، لأن أهل الصين لا يجدون غضاضة فى الإتجار

بالجواري والغلمان . وكانت هذه الوسيلة سبباً في منع انتشار الفساد في بلاد الصين ، إذ يقولون للتاجر الضيف ، « لا نريد أن يسمع في بلاد المسلمين أنهم يخسرون أموالهم في بلادنا .

مدينة الزيتون

شاهد ابن بطوطة كثرة الحداثق بهذه المدينة ، فلكل فرد بها منزل تحيط به حديقة غناء . وكان للمسلمين بها قسم خاص اتجه إليه ابن بطوطة . وهناك لقي شخصاً ممن قابلهم في أسفاره في الهند . وقدم هذا الرجل ابن بطوطة إلى السلطات في مدينة الزيتون ، فأكرموا وفادته وأنزلوه في منزل حسن . ثم جاء إليه قاضي المسلمين بالمدينة وكبار التجار بها للترحيب به . وذكر ابن بطوطة أن « هؤلاء التجار لسكنائهم في بلاد الكفار ، إذا قدم عليهم المسلم فرحوا به أشد الفرح ، وقالوا جاء من أرض الإسلام ، وله يعطون زكوات أموالهم فيعود غنياً كواحد منهم . »

جولة في الضواحي

ورغب ابن بطوطة في مشاهدة ضواحي مدينة الزيتون ومعرفة أحوال الناس بها وطرق معيشتهم . فبعث معه حاكم الزيتون جماعة من أصحابه إلى منطقة « صين كلان » . وتنقل

١٢١

ابن بطوطة وصحبه متخذين الطريق المائى الذى يربط مدينة الزيتون بداخل البلاد . وذكر أن المراكب التى تسير فى هذا النهر تدفع بالمجاديف ، ويحذف الجذافون قياماً وهم فى وسط المركب ، على حين يجلس الركاب فى مقدم المركب ومؤخرته . وكان يظلل المركب بثياب تصنع من نبات ببلاد الصين أشبه بالكثبان .

واستغرق ابن بطوطة فى جولته سبعة وعشرين يوماً ، وفى كل يوم يرسو المركب عند الزوال بقرية من القرى ليشترى ركاها ما يحتاجون إليه ، وكذلك يفعلون حين يأتى المساء . ولاحظ ابن بطوطة من هذه الرحلة أن بلاد الصين من أكثر البلاد أمناً ، وأحسنها حالاً للمسافرين . وأن الإنسان يسافر منفرداً ومعه الأموال الطائلة دون أن يخشى سوءاً . ذلك أن أهل الصين اتخذوا لهم فى كل مرحلة من مراحل الطريق فندقاً ، عليه حاكم يسكن به ومعه جماعة من الفرسان والرجال . وبعد العشاء يأتى الحاكم إلى الفندق ومعه كاتبه ، ويدون أسماء جميع من يبيت به من المسافرين ، ثم يقفل باب الفندق عليهم . وحين يأتى الصباح يعود الحاكم ومعه كاتبه إلى الفندق ، وينادى كل إنسان باسمه ، ثم يبعث مع المسافرين من يوصلهم إلى المرحلة الثانية ، ويأتيه الرسول بتقرير من حاكم الفندق التالى

يفيد أن جميع المسافرين قد وصلوا ، وهكذا على طول الطريق . وزودت هذه الفنادق بجميع ما يحتاج إليه المسافر من الطعام وخصوصاً الأوز والدجاج . ودهش ابن بطوطة من ضخامة دجاج الصين ، وذكر أن ديوكها كبيرة جداً . وقد اشترى ابن بطوطة دجاجة لم يستطع أن يطبخها في وعاء واحد ، وإنما جعلها في إناءين . وروى أن الديك في حجم النعامة ، على حين أن الأوز صغير الحجم .

أحوال أهل الصين

ولاحظ ابن بطوطة من تجواله في هذه الرحلة أن معظم أهل الصين لا يدينون بالإسلام ، وإنما يعبدون الأصنام ، ويحرقون موتاهم كما يفعل الهنود . ولكن شاهد مع ذلك أن في كل مدينة من مدن الصين حياً خاصاً بالمسلمين ، ينفردون بسكنائهم به ، ولهم فيه المساجد لإقامة صلاة الجمعة وهم معظمون محترمون ، ولهم في كل بلد شيخ يدعى شيخ الإسلام ، يرجع إليه المسلمون في شتى شئونهم ، فضلاً عن أن لهم قاضياً خاصاً يفصل بينهم . أما سائر سكان الصين من الوثنيين فيأكلون لحوم الخنازير والكلاب ، ويبيعونها في أسواقهم ، ولاحظ ابن بطوطة أنهم أهل رفاهية وسعة عيش ، لكنهم لا يهتمون بملبس أو مطعم . فترى

١٢٣

التاجر الكبير منهم الذى لا تحصى أمواله كثرة عليه جبة قطن خشنة . ولكل واحد من أهل الصين عكاز يعتمد عليه فى المشى ويسمونه الرجل الثالثة ، والحرير عندهم كثير جداً لأن دود القز تتعلق بالثمار وتأكل منها دون أن تحتاج إلى كثير مؤنة . وهو لباس الفقراء والمساكين بها ، ولولا التجار لما كانت له قيمة . ويبيع الثوب الواحد من القطن عندهم بالأثواب الكثيرة من الحريرة . وكان من عادة التجار سبك ما عندهم من الذهب والفضة قطعاً ، وزن الواحدة منها فنطاراً ، ومن كان له خمس قطع جعل فى إصبعه خاتماً ومن كانت له عشر جعل خاتمين .

أوراق النقد

على أن ابن بطوطة أشار إلى استعمال أهل الصين لأوراق النقد بدلا من العملة الفضية أو الذهبية ، مما يدل على علو كعبهم فى ميدان الاقتصاد والمال فى هذه المرحلة المبكرة . فذكر فى مشاهداته أن أهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم ، وجميع ما يُتَّحَصَل ببلادهم من ذلك يسبكونه قطعاً ، وإنما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد ، (ورق) ، كل قطعة منها بقدر الكف ، مطبوعة بطابع السلطان ، وتسمى الخمس والعشرون منها « بالشت » وهى تعادل الدينار .

وإذا تمزقت تلك الكواغد في يد إنسان حملها إلى دار السكة فأخذ عوضاً عنها أوراقاً جدداً ، ولا يدفع على ذلك أجراً ، لأن الذين يتولون هذا العمل لهم المرتبات من قبل السلطان . ويشرف على شئون هذا الديوان رجل من كبار رجال الدولة ، حتى أن الإنسان إذا ذهب إلى السوق ومعه درهم فضة أو دينار يريد شراء شيء بها لا يستطيع حتى يستبدل هذه النقود بأوراق « البالشت » .

الفخار الصيني

وتحدث ابن بطوطة عن الفخار الصيني الذي شاع استعمال الأواني المصنوعة منه في شتى أنحاء العالم . وشاهد طريقة صنعه بمدينة الزيتون ، إذ يحمل من جبال بالقرب منها نوع من التراب أشبه بالطفل ، ثم يقطع قطعاً على قدر قطع الفحم ، ويشعل فيه النار ، فيثقلد كالفحم ، ويعطى حرارة أشد منه . وإذا ما صار رماداً عجنوه بالماء وييسوه ، ثم يخمرونه . فالجيد منه ما خر شهرراً كاملاً ، والنوع الأقل ما خر عشرة أيام . وكانت الأواني المصنوعة منه رخيصة جداً ببلاد الصين ، وتنقل منها إلى الهند وسائر الأقاليم بالشرق .

التصوير عند الصينيين

على أن أشد ما أعجب به ابن بطوطة هو براعة أهل الصين في التصوير ، الذي لا يجاريهم « أحد في أحكامه . . . فإن لهم فيه اقتداراً عظيماً » ودون ملاحظاته عن التصوير قائلاً : « ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك أني ما دخلت قط مدينة من مدنها ، ثم عدت إليها إلا ورأيت صورتى وصور أصحابى منقوشة في الحيطان والكواغد موضوعة في الأسواق . . . ولقد دخلت العاصمة ، فررت على سوق النقاشين ، ووصلت إلى قصر السلطان مع أصحابى ونحن على زى العراقيين ، فلما عدت من القصر عشيّاً مررت بالسوق المذكورة ، فرأيت صورتى وصورة أصحابى منقوشة في كاغد قد ألصقوه بالحائط ، فجعل كل واحد منا ينظر إلى صورة صاحبه لا تخطيء شيئاً من شبهه . وذكر لى أن السلطان أمرهم بذلك ، وأنهم أتوا إلى القصر ونحن به ، فجعلوا ينظرون إلينا ، ويصورون صورنا ونحن لم نشعر بذلك ، وتلك عادة لهم في تصوير كل من يمر بهم ، وتنتهى حالهم في ذلك إلى أن الغريب إذا فعل ما يوجب قراره عنهم بعثوا صورته إلى البلاد وبحث عنه ، فحيث وجد شبه تلك الصورة أخذ . »

التأمين الاجتماعي

وأشاد ابن بطوطة. بتقدم أهل الصين في تأمين سبل العيش لغير القادرين منهم . فما شاهدته في إحدى كنائس مدينة من مدن الصين « بيوت يسكنها العميان وأهل الزمانات ، ولكل واحد منهم نفقته وكسوته من أوقاف الكنيسة ، وكذلك في داخلها المارستان للمرضى ، والمطبخة لطبخ الأغذية ، وفيها الأطباء والخدام . . . وكذلك الشيوخ الذين لا قدرة لهم على التكسب ، لهم نفقتهم وكسوتهم بهذه الكنيسة ، وكذلك الأيتام والأرامل من لإ حال لهم . »

الحفاوة الرسمية بابن بطوطة

وبينا ابن بطوطة يتجول في بعض مدن الصين مشاهداً نظمها وأحوالها جاءته دعوة من « القان » ، وهو ملك الصين لزيارته في عاصمة مملكته . فعاد ابن بطوطة إلى مدينة الزيتون وأخذ يستعد للسفر . وقد أبدى رغبته في السفر عن طريق النهر ، فجهزت له السلطات مركباً حسناً من المراكب المعدة لركوب الأمراء ، على حين أمدته التجار وغيرهم من كبار الرجال بالمؤن وسائر ما يحتاجه من مطالب . وبدأ ابن بطوطة

بعد ذلك رحلته ملاقياً من السلطات الرسمية في القرى والمدن التي اجتازها كل حفاوة وتكريم وتسهيلات في المأكل والمشرب .

كل غريب للغريب نسيب

وبعد سفر عشرة أيام وصل ابن بطوطة إلى مدينة قَنَجَنَفُو ، وهناك خرج الناس لاستقباله وعلى رأسهم كبير الفقهاء وأعيان التجار ، ومعهم الأعلام والطبول . ونزل ابن بطوطة في دار شخص يدعى « ظهير الدين القرلاني » . وتعرف في أثناء هذه الفترة بأحد أبناء قومه من بلاد المغرب ، وكان قد وفد على الصين واشتهر أمره بها ، ويدعى قوام الدين السبتي نسبة إلى مدينة سبته بأرض المغرب . وروى ابن بطوطة كيف تعرف على مواطنه قائلاً : « وبينما أنا يوماً في دار ظهير الدين القرلاني إذا بمركب عظيم لبعض الفقهاء المعظمين عندهم . فاستؤذن له على ، وقالوا مولانا قوام الدين السبتي . فعجبت من اسمه ، ودخل إلى ، فلما حصلت المؤانسة بعد السلام سئلتني أني أعرفه ، فأطلت النظر إليه . فقال : أراك تنظر إلى نظر من يعرفني ، فقلت له : من أي البلاد أنت ؟ فقال من سبته . فقلت له وأنا من طنجة ، فجدد السلام على وبكى حتى بكيت لبكائه . »

فى الطريق إلى عاصمة الصين

استأنف ابن بطوطة رحلته من مدينة قنجنفو ، ودخل مدينة تدعى الخنسنسا بعد مسيرة سبعة عشر يوماً . واشتهرت بهذه المدينة جالية مصرية أكرمت وفادة ابن بطوطة ، وروى أنه نزل هناك بدار أولاد عثمان بن عفان المصرى . وكان أحد التجار الكبار ، استحسن هذه المدينة فاستوطنها . واشتهر أبناؤه بالعطف على الفقراء وإعانة المحتاجين ، ولهم زاوية تعرف بالعثمانية حسنة العمارة . وكان عدد الجالية الإسلامية كبيراً بهذه المدينة ، احتفت بابن بطوطة اجتهاء بالغاً حتى أنه كان كل يوم طيلة الخمسة عشر يوماً التى قضاها فى المدينة يتلقى دعوة جديدة .

مشعوذ صينى

وفى مدينة الخنسا استدعى أميرها ابن بطوطة ، وأحضر أحد المشعوذين وقال له « أرنا من عجائبك . فأخذ كرة خشب لها ثقب ، فيها سيور طوال ، فرمى بها إلى الهواء . فارتفعت حتى غابت عن الأبصار . . . فلما لم يبق من السير فى يده إلا يسير أمر متعلماً له فتعلق به ، وصعد فى الهواء إلى أن غاب

عن أبصارنا ، فدعاه فلم يجبه ثلاثاً ، فأخذ سكيناً بيده كالمغتاط وتعلق بالسير إلى أن غاب أيضاً ، ثم رمى بيد الصبي إلى الأرض ، ثم رمى برجله ثم بيده الأخرى ، ثم برجله الأخرى ، ثم يجسده ، ثم برأسه ، ثم هبط وهو ينفخ وثيابه ملطخة بالدم . فقبل الأرض بين يدي الأمير وكلمه بالصيني ، وأمر له الأمير بشيء ، ثم إنه أخذ أعضاء الصبي ، فألصق بعضها ببعض وركضه برجله فقام سوياً . »

وقد عجب ابن بطوطة من هذا المنظر حتى أنه أصيب بخفقان في القلب ، فتناول دواء خاصاً أعاده إلى رشده . ولما استفهم ابن بطوطة عما شاهده ، قيل له إن شيئاً من الحادث نفسه لم يتم ، وإنما هي مهارة مشعوذى أهل الصين .

العاصمة خانبالق

وأخيراً بلغ ابن بطوطة العاصمة خانبالق ، وأعجب بعظمتها وكثرة بساتينها . ولكن استرعى نظره قصر السلطان فكان يقع في وسط المدينة ، وله سبعة أبواب ، يجلس بالباب الأول أمير البوابين ، ومعه حفاظ القصر وعددهم خمسمائة رجل . وعند الباب الثاني يجلس الرماة ، وبالباب الثالث أصحاب الرماح ، وبالرابع أصحاب السيوف . أما الباب الخامس فيؤدى إلى ديوان الوزارة .

وهذا الديوان عبارة عن سقائف كثيرة . يجلس الوزير في السقيفة الكبرى وأمامه دواة عظيمة من الذهب . وبالقرب من الوزير يجلس كاتب الرسائل ، وصاحب البريد ، وكذلك الشخص المختص بالنظر في المظالم . ويسمى المكان الأخير بديوان الغوث ، ويجلس فيه أجد الكبراء ومعه الفقهاء والكتاب ، فمن له مظلمة التجأ إليه .

رحيل ابن بطوطة عن الصين

على أن ابن بطوطة لم يهنأ عندما دخل عاصمة الصين . إذ انتشرت بها الفتن والتلاقل لخروج بعض أقرباء السلطان عن الطاعة ، وتطلعهم إلى الملك . وانتهت الفتن بقتل السلطان أو «القان» . فاضطر ابن بطوطة إلى مغادرة العاصمة على عجل ، وعاد إلى ميناء الزيتون ، حيث وجد سفناً أقلته إلى الهند .

الحنين إلى الوطن

الأهل والولد

غادر ابن بطوطة الشرق الأقصى مسرعاً قاصداً العودة إلى مسقط رأسه ببلاد المغرب . واختار طريق الشام ومصر ، حيث عمد إلى استطلاع أخبار أهله من بعض أصدقائه بتلك البلاد . ودخل دمشق بعد أن قضى عشرين سنة كاملة في بلاد الشرق الأقصى . وكان ابن بطوطة قد ترك في هذه المدينة زوجة حاملاً ، عرف فيما بعد في أثناء تجواله في الهند أنها أنجبت ولداً . فجهد منذ وصل دمشق في تقصى أخبار زوجته وابنه .

علم ابن بطوطة من صديقه نور الدين السخاوي إمام المالكية أن ابنه توفي منذ اثنتي عشرة سنة ، ثم دله على فقيه من أهل طنجة مقيم بدمشق يعرف أخبار والده . فذهب إليه ابن بطوطة ، وعرف منه أن والده توفي منذ خمسة عشرة سنة ، ولكن والدته لا تزال على قيد الحياة .

أقام ابن بطوطة بعد حصوله على هذه الأخبار فترة قصيرة

بالشام يدرس أحوالها وما طرأ عليها من جديد ، لإشباعاً لغريزة حب الاستطلاع التي لم تفارقه قط . غير أن وباء الطاعون كان قد تفشى إذ ذاك بالشام ، فأثر الذهاب سريعاً إلى مصر ، وإن كان الوباء قد امتد إليها أيضاً . وبلغ عدد الموتى في المدن التي مر عليها ابن بطوطة عدداً كبيراً ، وكان الوباء يشتد يوماً بعد يوم حتى إنه لم يخل يوم واحد لا يلقى فيه أناس كثيرون حتفهم .

حج وحنين

دخل ابن بطوطة القاهرة وكان السلطان في ذلك الوقت الملك الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون ، ولكنه أثر أن ينتهز سهولة الطريق من مصر إلى الحجاز - ، وحج إلى البيت الحرام ، ثم عاد إلى القاهرة حيث سمع بأبي عنان سلطان فاس ، وما اشتهر به من حب للعدل والإنصاف ، والعمل على الاهتمام بأحوال رعاياه .

وكان لهذه الأخبار أثر كبير في نفس ابن بطوطة ، فغبر عما ساوره من شوق قائلاً : « قصدت القدوم على حضرته العلية (يعني أبا عنان) ، مع ما شقنى من تذكر الأوطان ، والحنين إلى الأهل والخلان ، والمحبة إلى بلادى التي لها الفضل عندى على البلدان » .

١٣٣

أبحر ابن بطوطة من مصر إلى تونس في صفر سنة ٧٥٠ هـ - مايو ١٣٤٩ م . وكانت الرحلة إلى وطنه شاقة متعبة ، إذ كثرت سفن القراصنة في البحر ، وتعرض ابن بطوطة لكثير من المشاق . وبدأت هذه الصعاب عندما سافر من تونس في مركب من مراكب القطلانيين . فقد وصلت السفينة إلى جزيرة سرديانية ، وهناك علم أن أهل هذه الجزيرة يحترفون القرصنة ، ويعملون على سلب السفن بعد مغادرتها الجزيرة . واستولى الخوف على ابن بطوطة ، حتى إنه نذر صيام شهرين متتابعين إذا نجا من شرور أهل سرديانية .

على أن ابن بطوطة أتم رحلته بسلام ، ودخل أخيراً مدينة فاس في شعبان سنة ٧٥٠ هـ ، بعد أن عدل عن الذهاب إلى مسقط رأسه لعلمه بوفاة والدته .

النصرة القومية

أطنب ابن بطوطة في ذكر مناقب سلطان فاس ، حيث لقي منه كل عطف وكرم . وخلد له هذا العطف في مديحه وثنائه ، ورفعته إلى درجة تفوق سائر الحكام الذين قابلهم في أسفاره . فقال إن هيبة السلطان أبي عنان أنسته « هيبة سلطان العراق ، وحسن ملك الهند ، وحسن أخلاقه حسن خلق ملك

اليمن ، وشجاعته شجاعة ملك، الترك ، وحلمه حلم ملك الروم ،
 وديانته ديانة ملك تركستان ، وعلمه علم ملك الجاوة . »
 وأخذ ابن بطوطة يشيد بعد ذلك ببلاده وما سادها من رخاء
 وازدهار على عهد السلطان أبي عنان ، واستشهد بقول القائل :
 الغرب أحسن أرض ولي دليل عليه
 البدر يرقب منه والشمس تسعى إليه

في رعاية السلطان أبي عنان

اتخذ ابن بطوطة حياة السلطان أبي عنان نموذجاً للحياة
 في أرض المغرب ، وأشاد بحرص السلطات هناك على حث الناس
 على التمسك بالفضائل . فكان العدل مستتباً في دولة السلطان
 أبي عنان حيث حرص على الجلوس للنظر في المظالم بنفسه المتعلقة
 برعاياه ، ولا سيما الفقراء منهم . وكان يخصص يوم الجمعة لهذا
 النفر البائس ، ويبدأ بفحص شكاوى النساء ، « ومن وصلت
 نوبتها نودى باسمها ، ووقفت بين يديه الكريمتين يكلمها دون
 واسطة . فإن كانت متظلمة عجل إنصافها ، أو طالبة إحسان
 وقع إسعافها » .

وبذل السلطان عناية كبرى لرعاية العلم في دولته . فكان
 يعقد مجالس العلم في كل يوم بعد صلاة الصبح ، ويستدعى

١٣٥

أعلام الفقهاء ونجباء الطلبة ، ويشترك معهم في المناقشات العلمية ، ولا سيما في تفسير القرآن . واسترعى هذا الاهتمام بالعلم نظر ابن بطوطة حتى إنه قال « ولم أر من ملوك الدنيا من بلغت عنايته بالعلم إلى هذه النهاية . فقد رأيت ملك الهند يتذاكر بين يديه بعد صلاة الصبح . . . ورأيت ملك الجاوة يتذاكر بين يديه بعد صلاة الجمعة . . . حتى رأيت ملازمة مولانا (أبي عنان) أيده الله في الصلوات كلها » .

زيارة قبر الوالدة

على أن ابن بطوطة ترك بلاط أبي عنان وذهب لزيارة قبر والدته بطنجة . وهناك تجدد عنده الشوق مرة أخرى للترحال والتجوال . فقصده بلاد الأندلس هذه المرة ليشاهدهذه الرقعة من دار الإسلام .

ولكن ابن بطوطة لم يقيم بهذه البلاد كثيراً ، فكان المسلمون يعانون أخطر مرحلة في حياتهم ، وهو انسحابهم أمام المسيحيين من أهل الأندلس ، ومن ثم عاد ابن بطوطة حزينا إلى طنجة ، تاركا وراءه هذا القطر العظيم من دار الإسلام .

في أحضان السودانيين

الأرض البكر

عزم ابن بطوطة بعد عودته من الأندلس على القيام برحلة
ثالثة ليزور بلاد المسلمين في السودان الغربي ، وحاز بذلك
قصب السبق في دراسة أحوال السودانيين وتدوين مشاهداته
عنهم قبل أن يفكر أى رحالة آخر في الذهاب إلى هذه البلاد .
وكان الإسلام قد سبق ابن بطوطة في الانتشار بين
السودانيين ، وأخرجهم من الظلمات إلى النور . وجاءت رحلة
ابن بطوطة وما حفلت به من أنخبار عن أحوال السودان دليلاً
ناصباً على ما تحلى به السودانيون من خلق رفيع ، وأنهم جديرون
بتبوؤ مكانة عالية في مضمار الحضارة العالمية .

انتشر الإسلام بين السودانيين عن طريق بلاد المغرب
بعد عبوره الصحراء الكبرى . وساعد بلاد المغرب على الاضطلاع
بهذا الدور الهام اتصال قوافل التجارة بينها وبين أرض السودان ،
وانتظام المسالك عبر الصحراء الكبرى . وكانت قبائل البربر

سكان المغرب تتميز بصفة خاصة بحماسة الدينية ، وغيرها على إدخال جيرانها في حظيرة الإسلام .

وبدأ الإسلام يظهر بجلاء في أرض السودان الغربي في عهد يوسف بن تاشفين أحد أمراء دولة المرابطين ببلاد المغرب سنة ١٠٦٢م . فقد أخذ سكان مملكة غانة وسنغاي في غرب السودان يدخلون في الدين الإسلامي أفواجا ، وعلى رأسهم الحكام وأسراهم . فأسلم ملك سنغاي المسمى زاكسي (Za - Kassi) ، بمحض إرادته ، وغدا نموذجا لإقبال السودانيين على اعتناق الدين الإسلامي .

وجاء انتشار الإسلام بين السودانيين حافزا على ازدياد العمران ، وظهور مدن جديدة نشأت ذات طابع إسلامي محض منذ بداية تاريخها . فقد تأسست في القرن الحادي عشر الميلادي ، الذي اقترن عهده بدخول الإسلام السودان ، مدينتان كان لهما أكبر الأثر في انتشار الدعوة إلى الإسلام في السودان الغربي وتفهم الناس أصول هذا الدين الحنيف .

وكانت هاتان المدينتان هما مدينة جني (Genne) ، ومدينة تمبكتو (Timbuktu) . وقد غدت المدينة الأخيرة مركزا هاما لتجارة القوافل مع بلاد المغرب ، ونموذجا للمدن الإسلامية ببلاد السودان . فلم « تدنسها عبادة الأوثان ، ولا سجد على

أديهما قط لغير الرحمن » وصارت هذه المدينة فيما بعد مركزاً لتعليم الإسلام في السودان توافد عليها الطلبة وعلماء الدين في أعداد كثيرة ، مدفوعين إلى ذلك بما يلاقونه هناك من تشجيع .
وقد شاهد ابن بطوطة هذه المدينة ودون تقريراً وافياً عن أحوالها ، ولكن كانت أعظم ولايات السودان على عهده هي ولاية ملى (Melle) أو مالى (Malli) . ذلك أن أهلها اشتهروا بالذكاء وحذقهم للصناعات ، كما اشتهروا بالأمانة في المعاملة . وعرف سكان مالى كذلك بالحرص على نشر الإسلام بين جيرانهم والاهتمام بتلقيش تعاليمه .

الرحلة إلى السودان

استأذن ابن بطوطة سلطان فاس في الخروج لزيارة السودان . وفي أوائل عام ٧٥٣ هـ (١٣٥٢ م) خرج على رأس قافلة من التجار قاصداً مدينة إيولاتن ، أولى مدن السودان الغربي . وبعد رحلة موحشة في صحراء شاسعة ، ظهرت طلائع مدينة إيولاتن ، وبدأت مشاهدات ابن بطوطة في أرض السودان .

البساطة والكرم

عندما دخل ابن بطوطة مدينة إيولاتن أخذ يدرس أحوال

أهلها ويسجل ما يشاهده بعين التفاحص الخبير . وكان دقيقاً في ملاحظاته ولا يعرف المبالغة أو الخداع . ومن ثم جاءت زيارته للسودان سجلاً صادقاً للمرحلة الأولى من انتشار الإسلام بين السودنيين ، وكيف أنهم كانوا يفهمون الدين الإسلامى ، ويجهلون أصول بعض قواعده من ناحية أخرى .

نزل ابن بطوطة عند رجل فاضل من أهالى المدينة ، وأعجب ببساطة حياتهم ولا سيما كبار حكامها . فكان «الفربا» أو الحاكم يبدل جهده فى حفظ أمتعة التجار ، ويستقبلهم حين وصولهم ، وبعد ذلك يشرف عمدة المدينة أو نائب الحاكم «منشاجو» على راحة الضيوف ، ويدعوهم لضيافته حيث يقدم لهم مشروباً وطنياً من جريش، وعسل ولبن لم يعجب به ابن بطوطة .

وقد أكرم قاضى المدينة وعلمائها ابن بطوطة ، وأضافوه عندهم . على أن ابن بطوطة أحس بشدة الحر فى مدينة إيوالاتن ، وذكر أن بالمدينة قليلا من شجر النخيل يزرع أهلها فى ظله البطيخ . وقد استرعى نظر ابن بطوطة أن ثياب أهالى المدينة من نسيج مصر ، وأن نساءها جميلات فاتنات ، وأن لهن شأنًا كبيراً بالمدينة .

اختلاط الجنسين

أدهش ابن بطوطة كثيراً اختلاط النساء بالرجال في مدينة إيوالاتن . فذكر « أن رجالهم لا غيرة لديهم ، ولا ينتسب أحدهم إلى أبيه بل ينتسب لخاله ، ولا يرث الرجل إلا أبناء أخته دون بنيه . . . ونساؤهم لا يحتشمن من الرجال ، ولا يحتجبن مع مواظبتن على الصلوات . . . والنساء هنالك يكون لهن الأصدقاء والأصحاب من الرجال الأجانب ، وكذلك للرجال صواحب من النساء الأجنبية ، ويدخل أحدهم داره فيجد إمراة ومعهها صاحبها فلا ينكر ذلك » .

واستغرب ابن بطوطة هذا الاختلاط رغم تمسك أهالي المدينة بالإسلام . فذكر أنه دخل يوماً على القاضي بالمدينة بعد أن أذن له بالدخول ، فوجد عنده امرأة صغيرة السن بديعة الحسن . فلما رأى ذلك أراد الرجوع ، ولكن المرأة ضحكت ولم يتركها الحجل ، وقال له القاضي : لم ترجع ؟ إنها صاحبتى ! .

وظلت هذه الظاهرة تؤرق ابن بطوطة ، إذ دخل يوماً على دار صديق له من أهل السودان ممن تردد على بلاد المغرب ، فوجد امرأة جالسة مع رجل . فسأل صديقه عن أمرها ،

فقال له هذه المرأة زوجتي والرجل صاحبها . فقال له ابن بطوطة :
 « كيف ترضى بهذا وأنت سكنت بلادنا وعرفت أمور الشرع ؟ »
 فقال له صديقه إن مصاحبة النساء للرجال على خير وحسن
 طريقة ، وأنهن يختلفن عن نساء المغرب . فعجب ابن بطوطة
 من رعونة صديقه ، وأعرض عن زيارته .

على أن هذه الظاهرة التي شاهدها ابن بطوطة تدل دلالة
 واضحة على أن أهل هذه المنطقة من السودان لم تفهم بعد
 تعاليم الإسلام فهما صحيحاً لقلة الدعاة والمعلمين ، لأنه عندما
 أخذ ابن بطوطة يسير شرقاً في أقاليم السودان رأى ازدياد فهم
 السودانيين لتعاليم الإسلام لكثرة العلماء والمعلمين بها ، ولشدة
 اتصالهم بمصر والمغرب وبلاد الحجاز كذلك .

جولة في السودان

غادر ابن بطوطة مدينة إيوالاثن قاصداً مدينة مالى أكبر
 مدن السودان وأعظمها شأنًا . واستأجر دليلاً من أهالى إيوالاثن
 وسافر بمفرده حيث الطريق آمن وأسباب الراحة به مكفولة .
 وكان الطريق غاصاً بالأشجار تبعث ظلاً جميلاً ، وفضلاً عن
 ذلك كانت هذه الأشجار تحفظ داخلها مياه الأمطار ،
 وكأنها بئر يشرب منه الناس . وشاهد ابن بطوطة حائكاً

قد اتخذ لنفسه مأوى داخل إحدى الأشجار بالطريق .
 وكان المسافر فى الطريق لا يحمل معه طعاماً أو نقوداً ،
 وإنما يأخذ قطع الملح وحلى من الزجاج وبعض العطور . فإذا
 مرّ بقرية من القرى ، خرج إليه النساء ومعهن اللبن والدجاج
 والدقيق فيشتري منهن المسافر ما يريد مقابل إعطائهن مما يحمل
 من ملح أو عطور . وكان المسافر يحرص على شراء نبات يسمى
 « الفوفى » ، أشبه بحب الخردل ، يصنع منه الكسو والعصيدة .
 ومرّ ابن بطوطة فى طريقه بنهر النيجر وظنه نهر النيل ،
 وقال إنه ينحدر إلى بلدة زاغة وتنبكتو ثم إلى بلاد النوبة ودنقلة .
 ولعل ابن بطوطة قد التبس عليه هذا الأمر لاقتراب بحر الغزال
 أحد فروع النيل من نهر النيجر . ولكن يلتمس لابن بطوطة
 العذر فى هذا اللبس ، ولا سيما أن منابع النيل الحقيقية لم
 تكتشف إلا منذ عهد يسير .

وكان ابن بطوطة يرى مظاهر الإسلام الحق كلما سار
 شرقاً ، فأعجب بأهل زاغة وذكر أنهم قدماء فى الإسلام ،
 متمسكون بأهداب الدين ، ومقبلون على طلب العلم . والواقع أن
 هذه المنطقة التى تقع على فرع النيجر الشمالى الغربى مقر مملكة
 «تكرور» التى كانت أول معقل للإسلام بالسودان فى بداية القرن
 الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) . وكان لهذه المملكة

١٤٣

اتصال بمصر ، ولا سيما أنها بعثت أبنائها إلى الأزهر للتفقه في شئون الدين .

وأخيراً وصل ابن بطوطة إلى مدينة مالى حاضرة مملكة السودان المسماة بهذا الاسم ، وكان من عادة أولى الأمر فيها أن يمنعوا الناس من الدخول فيها إلا بإذن منهم . وقد سمح لابن بطوطة بدخول المدينة حيث كان قد استأذن من السلطات بها .

الجلاليات الأجنبية تحنفل بابن بطوطة

كان بمدينة مالى جالية كبيرة من أهل المغرب ومصر ، ورئيسها شمس الدين بن النقويش المصرى . وقد اتخذت هذه الجالية لنفسها حياً خاصاً فى المدينة ، فأفرد رجل من أهل المغرب لابن بطوطة داراً يتزل بها . وأخذت الهدايا تتوالى عليه من كل حذب ، ولا سيما من رجال الدين السودانين . وقد أصاب ابن بطوطة مرض لتناوله وجبة طعام عافها نفسه ، فتولى أفراد الجالية المصرية تمريضه ، وأعطوه دواء ساعده على الشفاء .

سلطان مالى

حرص ابن بطوطة - شأنه فى كل رحلاته - على دراسة

أحوال سلطان مدينة مالى ومعرفة طباعه ، لأن تصرفات الحكام مرآة تنعكس عليها شئون البلاد . دخل ابن بطوطة على السلطان فى شهر رمضان وقال له : « إني سافرت بلاد الدنيا ، ولقيت ملوكها ، ولى ببلادك منذ أربعة أشهر ولم تضيفنى ولا أعطينى شيئاً . » فأمر له السلطان بدار ينزل بها ، وخصص له مرتب خاص .

وكانت أحوال مملكة مالى تدل على تقدمها فى الحضارة ، وحرص أهاليها على الاحتفال بالمواسم الدينية الإسلامية . فشهد ابن بطوطة احتفال سلطان مالى بالأعياد ، ومشاركته شعبه فى مبايعتهم . فكان يخرج للصلاة وعلى رأسه غطاء (طيلسان) أسود ومعه الناس وعليهم الثياب البيض الحسان . وبعد انتهاء الصلاة يجرى احتفال يشهده السلطان . فيجلس على مكان مرتفع وخلفه أربعة من الأمراء يبعدون عنه اللذباب ، ثم يأتى النساء عليهن الملابس الحسان ويغنين ، وكذلك يأتى غلمان صغار يلعبن حركات بهلوانية جميلة . وعند نهاية الحفل يغدق عليهم السلطان منحة مالية .

كارنفال بالسودان

وكان يعقب هذا الحفل مظهرٌ أشبه بأعياد الكرنفال ،

واتخاذ صور رمزية يتنكر فيها المحتفلون . على أن هذا التنكر في الأزياء كان يقتصر في السودان على الشعراء . ففي يوم العيد يدخل الشعراء على السلطان وقد دخل كل واحد منهم في جوف صورة مصنوعة من الريش ، لها رأس من الخشب ومنقار أحمر كأنه رأس الشقشاق ، ويقفون بين يدي السلطان في هذا المنظر الطريف . ويأخذ الشعراء بعد ذلك في إلقاء قصائدهم ، وكانت أشبه بالوعظ ، حيث يذكرون السلطان بما فعله أجداده وأسلافه من أعمال عظيمة ، ويدعونه إلى السير على نهجهم ، والتمسك بتقاليدهم الطيبة . وكان الشعراء يختتمون حفلهم بعادة سودانية قديمة ، ترجع إلى ما قبل اعتناقهم للإسلام . إذ يصعد كبير الشعراء إلى مقر السلطان ويضع رأسه في حجر السلطان ، ثم على كتفه الأيمن ، ثم على كتفه الأيسر ، ويعود إلى مقره .

* * *

وأعجب ابن بطوطة بحرص السودانيين على حضور الصلوات في ملابس نظيفة ، واهتمامهم بتلقيق أبنائهم القرآن الكريم . فقال : « دخلت على القاضي (بمدينة مالى) يوم العيد ، وأولاده مقيدون ، فقلت له ألا تسرحهم ؟ ، فقال لا أفعل ، حتى يحفظوا القرآن . » وأضاف ابن بطوطة مشاهدة أخرى قائلا : « مررت يوماً بشاب حسن الصورة عليه ثياب

فاخرة ، وفي رجله قيد ثقيل ، فقلت لمن كان معي : ما فعل هذا ؟ أقتل ؟ . ففهم عني الشاب وضحك ، وقيل لي : إنما قيد حتى يحفظ القرآن . »

فرس البحر

غادر ابن بطوطة مدينة مالى قاصداً تمبكتو ، ورافق أحد التجار ليدله على الطريق . وركب ابن بطوطة وصحبه الجمال لأن الخيول غالية الثمن . وقد وصلوا إلى شاطئ نهر النيجر واضطروا إلى التريث حتى الليل لعبور النهر لكثرة البعوض . على أن ابن بطوطة شاهد بهذا النهر عندما اقترب من ضفته ست عشرة دابة ضخمة ، وقد ظن أنها بادية الأمر فيلة ، ولكن لم يلبث أن رآها تدخل النهر . فسأل رفيقه عن أمرها فأخبره أنها أفراس البحر « وهى أغلظ من الخيل ، ولها أعراف وأذنان ورؤوسها كرؤوس الخيل وأرجلها كأرجل الفيلة . » وقد شاهد هذه الأفراس تعوم في الماء ، وترفع رأسها وتنفخ .

وكانت طريقة صيد هذه الأفراس طريفة ، إذ يخرج الصيادون ومعهم رماح مثقوبة مربوط فيها شرائط متينة . ويضربون الفرس منها ، فإن صادفت الضربة رجله أو عنقه خرقته ، ثم يشدون به بالحبل حتى يصل إلى الساحل ويلدبحونه .

ولحمه يؤكل ، حتى أن عظامه ترى منتشرة على طول الشاطئ .

نيام نيام

وفي أثناء رحلة ابن بطوطة سمع بأخبار نيام نيام آكلى لحوم البشر . وقابل عند المكان الذى اجتاز عنده نهر النيجر رجلا قص عليه شيئاً عن أخبار أولئك القوم . فقال حدث أن قاضياً من البيض دخل فى خدمة سلطان مالى ، وكان يرافقه فى أسفاره . وقد منحه السلطان مبلغاً من المال ، ولكن القاضى اشتكى للسلطان ضياع ماله فى أثناء سفره ببلدة تدعى « ميمه » فطلب السلطان حاكم هذه البلدة ، وهدده بالقتل إن لم يحضر السارق .

وجد الحاكم فى طلب السارق فلم يجده . ودخل على خدم القاضى وهددهم ، فقالت له إحدى الجواري : ما ضاع من هذا القاضى شيء ، وإنما دفنها بيده فى موضع دلته عليه . فأخرجها الحاكم وبعث بها إلى السلطان . فاشتد به الغضب ونفى القاضى إلى « بلاد الكفار الذين يأكلون بنى آدم » . على أن القاضى أقام هناك أربع سنين عاد بعدها دون أن يصبیه شيء ، إذ أن نيام نيام لا يأكلون لحم البيض متلرعين أنه لم ينضج ، وأن اللحم الأسود عندهم دليل النضج .

وسمع ابن بطوطة كذلك أن جماعة من أولئك السكان آكلوا لحوم البشر وفدت على السلطان ومعهم أمير لهم . ومن عاداتهم أن يجعلوا في آذانهم أقراطاً كبيرة ، فتحة القرط منها نصف شبر . وقد أكرمهم السلطان وأعطاهم في ضيافته خادمة ذبحوها وأكلوها ، ولطخوا وجوههم وأيديهم بدمائها . وقد سألمهم بعض الناس عن أطيب ما في لحم البشر ، فقالوا : الكف والثدى .
ولا شك أن دقة ابن بطوطة أثبت إلا أن يذكر أخبار هؤلاء القوم نقلاً عما سمعه ، لأنه لم يشاهدهم أو يذهب إلى بلادهم .

المصريون في السودان

وأخيراً وصل ابن بطوطة إلى مدينة تمبكتو ، وشاهد أهلها يضعون اللثام على أفواههم . ولكنه شاهد آثار اتصال المصريين الوثيق بالسودان . وكلما اقترب من السودان الشرق رأى ازدياد اتصال السودانيين بمصر ولا سيما في النواحي التجارية . وذكر قصة تدل دلالة واضحة على الظاهرة السالفة . إذ حج سلطان تمبكتو المدعو منسى موسى مرة وعاد إلى مصر ونزل عند أحد التجار المصريين الساكنين بالقرب من بركة الحبش بالقاهرة ، ويدعى سراج الدين .

وقد احتاج السلطان وأمرأؤه بعض الأموال فأمدهم بها هذا التاجر المصرى ، وأوفد معهم أحد وكلائه ليتسلم هذا المال بالسودان . ولكن وكيل التاجر المصرى عرج على مدينة مالى وأقام بها . فذهب سراج الدين بنفسه لاقتضاء ماله واصطحب معه ابنه إلى السودان . فلما وصلا تمبكتو استضافه شخص يدعى أبا إسحق الساحلى ، وتصادف أن توفى التاجر المصرى فى تلك الليلة . فتكلم الناس فى ذلك واتهموه أنه دس للتاجر سمّاً . ولكن ابن التاجر المصرى قضى على هذه التهمة وأثبت لهم أنه أكل مع أبيه الليلة الماضية من نفس الطعام ولم يمت ، وقضى بذلك على أية تهمة قد تفصم عرى الوحدة بين المصرين والسودانيين . ثم حصل ابن التاجر المصرى على مال أبيه وعاد إلى مصر . وشاهد ابن بطوطة قبر هذا التاجر المدعو سراج الدين بن الكويك المصرى بمدينة تمبكتو .

كرم السودانين

ولما غادر ابن بطوطة مدينة تمبكتو لى فى طريقه كل إكرام من السودانين ، مما دل على أنه كلما توغل شرقاً ازدادت أخلاق الأهالى حسناً ورقة . وقد تنقل ابن بطوطة عن طريق النهر راكباً قارباً صغيراً منحوتاً من خشبة واحدة . وكان

ابن بطوطة وصحبه ينزلون كل ليلة بالقرى التي يمرون بها ، ويشربون ما يحتاجونه من طعام وسمن ، بطريق المقايضة بالعطور وحلى الزجاج .

وقد مر ابن بطوطة بإحدى القرى واحتاج إلى شيء من الذرة ، فذهب إلى عمدة القرية وكتب لوحاً يطلب منه ذرة . ولما عرف العمدة طلب ابن بطوطة أخذه من يده وأدخله قاعة كبيرة بها كثير من السلاح ، وأراه كتاباً لابن الجوزي أحد مؤرخي المسلمين . وقد قرأ فيه ابن بطوطة بعض الشيء ، ثم قدم له مشروباً يسمى « الدقنو » ، وهو عبارة عن ماء فيه جريش الذرة المخلوط بالعسل واللبن . وهذا الشراب يستعاض به عن الماء الذي يضرب شربه وحده بالجسم .

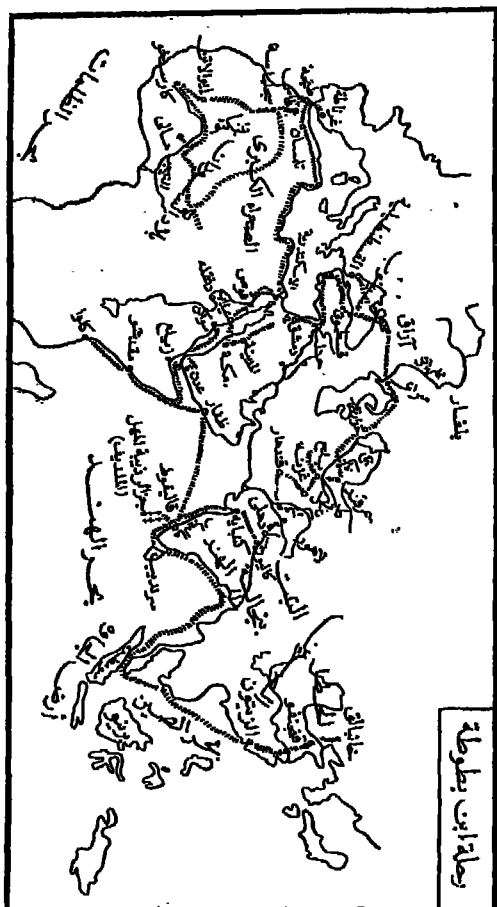
نهاية المطاف

واصل ابن بطوطة تجواله في السودان حتى بلغ مدينة تدعى «تسكدّا» ، وهناك جاءه أمر سلطان فاس بالعودة . فاشترى جملين وبعض المؤن ، واختار في عودته طريقاً قصيراً مقفراً ، ولكن يتوافر به الماء ، مما يساعد على السفر . خرج ابن بطوطة من تكندا يوم الخميس الحادى عشر من شعبان سنة ٧٥٤ هـ في قافلة كبيرة .

١٥١

وكان الطريق متعباً بسبب وجود بعض قطاع الطرق به .
ولكن وصلت القافلة أخيراً مدينة سجلماسة في منتصف ذى القعدة
من سنة ٥٧٥٥ هـ ، ومن هناك قصد إلى فاس حيث تشرف بمقابلة
السلطان ، ومكث في جوارحه حيث سجل رحلته التي حوت الكثير
من الأخبار عن البلاد التي وصل إليها الإسلام .

1



فهرس

صفحة	
٥	جواب الآفاق
١٢	بداية المطاف
١٩	ابن بطوطة في الشام
٢٥	الحاج بن بطوطة
٣٤	جولة في ربوع العراق
٤٥	حول البحر الجنوبي
٥٦	الفتوة والفروسية — شعار الأتراك العثمانيين
٦٩	في منازل المغول
٨٠	ابن بطوطة في الهند
٩٧	جزر الهند والسلاام — جزائر ذبابة المهل
١١١	مهبط آدم
١١٦	بلاد الشمس المشرقة — أرض الصين
١٣١	الحنين للوطن
١٣٦	في أحضان السودانين

مجموعة سيرة الرسول

مجموعة جديدة تضمنت حياة الرسول الكريم ،
وجمعت فيها الحقائق التي يجب أن يعرفها كل مسلم حتى
يكون على علم بأهم التطورات المختلفة التي لا بست حياة
النبي العظيم ويتبين ما كان له من أثر في العالم كله :
قديمه وحديثه . وفي كل حادثة وردت مواضع للعظة
والاعتبار ، ودلائل على أن حياة محمد كانت حياة
مثالية كريمة على الله والناس وتصور لنا البذل والتضحية
في أسمى الصور وأرق المعاني .

- | | |
|-----------------|-------------------|
| ١ - المولد | ٨ - مع القبائل |
| ٢ - النشأة | ٩ - الهجرة |
| ٣ - الوحي | ١٠ - غزوة بدر |
| ٤ - فجر الدعوة | ١١ - غزوة أحد |
| ٥ - مشرق الدعوة | ١٢ - غزوة الأحزاب |
| ٦ - سحاب وضيباب | ١٣ - فتح مكة |
| ٧ - نور وضياء | ١٤ - الوفاة |

ثمان النسخة ٣ قروش

دارالمعارف

مجموعة قصص الأنبياء

مجموعة جديدة في أسلوب سهل ممتع ، وإخراج أنيق جميل ، للصغار والكبار ، تصف حياة الأنبياء ، وجيل أعمالهم ، وتسرد ما صادفهم من حوادث مع أقوامهم ، خالية من الشوائب والإسرائيليات حتى تظل العقيدة سليمة نقية تمكن الإنسان من التقرب إلى الله تعالى وحده ، والاعتصام بدينه وتعاليمه ، والتحلى بالفضائل الحسنة ، والتمسك بالأخلاق الكريمة .

١ - آدم	١٠ - موسى الرضيع
٢ - نوح	١١ - موسى والسحرة
٣ - هود	١٢ - موسى وبنو إسرائيل
٤ - صالح	١٣ - داود
٥ - إبراهيم الخليل	١٤ - سليمان وملك الجزائر
٦ - إسماعيل الذبيح	١٥ - سليمان وبلقيس
٧ - يوسف الصديق	١٦ - يونس
٨ - يوسف العفيف	١٧ - أيوب
٩ - يوسف على خزان مصر	

ثمان النسخة ٣ قروش

دارالمعارف

دار المعارف

تقدم لسانثة العربية
بين السابعة والثانية عشرة من أعماهم

المكتبة الخضر للأطفال

تحفة جديدة مبتكرة ورائعة
من القصص الخيالية العالمية

• سيقرأ بها كل قطر من الأقطار العربية
لا فيما من نزل للكتاب العرب .

• سيقرأ بها كل فتى وفتاة
لا فيما من متعة جميلة لعينهم وقلوبهم .

• سيقرأ بها كل والد ووالدة
لا فيما من أطفالهم من غذاء صالح لعقولهم وقلوبهم .

• سيقرأ بها رجال التربية والتعليم
لا فيما من وسيلة طيبة لتحديد الكتاب العرب إلى الأمانة
وتزويجهم إلى طريق المعرفة والفكر والجمال

تحت الطبع :

صدر منها :

- | | |
|--------------------|----------------------|
| ١ . أطفال القابضة | ٤ . القمامة العينية |
| ٢ . سندريلا | ٥ . البهائم المزعزعة |
| ٣ . السلطان السحور | ٦ . الأميرة المسنار |

ثمن النسخة بئلاف ١٥ قرشا - مجلدة بكرتون ٢٠ قرشا

روضة الطفل



- ١ أرنبو والكنز
- ٢ كتكت المدهش
- ٣ عيد ميلاد فلة
- ٤ فرفر والجرس
- ٥ ذيل الفأر
- ٦ البطة السوداء
- ٧ انتصار فيروزة
- ٨ حسن والذئب
- ٩ حبة القمح
- ١٠ زحلف الشجاع
- ١١ ذكاء سمسمة

أول مجموعة من نوعها باللغة العربية يجده
الطفل فيها قصصاً مفيدة مزيّنة بالصور
المبتكرة ومطبوعة بالألوان الجميلة

تصلدها

دار المعارف



دار المعارف

تقدم
للأولاد في جميع البلاد

سندباد

- المجلة الأولى للأولاد في الشرق العربي ، بل المشروع الأول من نوعه في البلاد العربية.
- يتبل عليها الأولاد بشغف وليدة لما فيها من متعة وتسلية وفائدة .
- لدمحور رضا الأبناء وجدهم ، بل رضى عنهم الآباء والأمهات ، وشجعهم المدرسون ورجال التربية والتعليم .
- فريدة في جمال أحوالها بالألوان الجميلة ، وصورها المتحركة وبعباراتها الشائقة . فهي متعة للعين والقلب والفكر .

تصدر أسبوعية منذ عام ١٩٥٢ - وظهور يوم الخميس من كل

٢ قريشان

العدد الأول : ثمن كل مجلد منها ٧٠ قرش
العدد الثاني : ثمن كل مجلد منها ٦٠ قرش

٢٠٠٢

Bibliotheca Alexandrina



0355760

